تاريخ المصريين ١٤

مصر في عصر الولاة

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف



يتميز كتاب الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف بأنه لا يقتصر على التاريخ السياسى لمصر فى تلك الحقبة التاريخية الهامة ، التى امتدت لتشمل نحو قرنين ونصف القرن من الزمان ، بل يتسع ليتناول التاريخ الحضارى . ففيه تعالج الدكتورة سيدة كاشف المتغيرات التى طرأت على النظام الإدارى والمالى والعسكرى والقضائى ، والتى نقلت مصر من العصر البيزنطى إلى العصر الإسلامى ، كما تعالج التغيرات الاجتماعية التى طرأت على المجتمع المصرى وحولته من مجتمع مسيحى بيزنطى إلى مجتمع إسلامى عربى . ثم هى تعالج التغيرات الاقتصادية التى طرأت على الزراعة والصناعة والتجارة ، وتتعرض للحياة الفكرية والعلمية وماطرأ عليها من تغيير وتطور .

١٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية ا[illegible]

تاريخ المصريين

١٤

مصر في عصر الولاة

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

تأليف

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى

بكلية البنات - جامعة عين شمس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

تقـــديم

يسرني أن أقــدم للقــارىء كتاب : « مصر فى عصر الولاة » للأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشــف ، أستاذة التــاريخ الاسلامى والعصور الوسطى بكلية بنات جامعة عين شمس ، وأحد أعلام التاريخ الاسلامى فى مصر ، الذى يعالج فترة تحول خطيرة فى تاريخ مصر ، هى الفترة من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، التى أنهت عصرا كاملا ، وبدأت عصرا كاملا مازال ممتدا حتى لحظة كتابة هذه السطور • ففى هذه الفترة تحول المجتمع المصرى من مجتمع مسيحى بيزنطى الى مجتمع اسلامى عربى ، بكل ما ترتب على ذلك من تغير الدور الحضارى لمصر تغيرا جذريا ، وتغير دورها السياسى أيضا ، واتخاذ تاريخها مسارا آخر بعد أن أصبحت جزءا لا يتجزأ من العالم الاسلامى أولا ، ثم أصبحت ، بعد ظهور الفكرة القومية ، جزءا لا يتجزأ من العالم العربى ، تحتل فيه محل الرأس من الجسد •

وهذا الكتاب يصدر فى اطار السياسة التى خططت لهـذه السلسلة ، وهى اعادة نشر بعض الأعمال العلمية المتميزة التى نفدت

طبعاتها من السوق ، والتى هى ذات أهمية خاصة ، وتحتاجها المكتبة العربية . وكان أول كتاب أعيد نشره هو كتاب المرحوم الدكتور محمد أنيس : « صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل » ، وقد نجحنا فى الحصول على موافقة على اعادة نشر كتاب المرحوم شفيق غربال : « تكوين مصر » ، الذى سوف يصدر فى وقت لاحق ، بالاضافة الى بعض الكتب الأخرى ـ هذا جنبا الى جنب مع الأعمال العلمية الجديدة ، وبما يؤدى انشاء الله الى تكوين مكتبة متكاملة فى « تاريخ المصريين » يفخر باقتنائها كل مصرى وطنى أصيل .

ويتميز كتاب الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف بأنه لا يقتصر على التاريخ السياسى لمصر فى تلك الحقبة التاريخية الهامة ، التى امتدت لتشمل نحو قرنين ونصف من الزمان ، بل يتسع ليتناول التاريخ الحضارى . ففيه تعالج الدكتورة سيدة كاشف المتغيرات التى طرأت على النظام الادارى والمالى والعسكرى والقضائى ، والتى نقلت مصر من العصر البيزنطى الى العصر الاسلامى ، كما تعالج التغيرات الاجتماعية التى طرأت على المجتمع المصرى وحولته من مجتمع مسيحى بيزنطى الى مجتمع اسلامى عربى . ثم هى تعالج التغيرات الاقتصادية التى طرأت على الزراعة والصناعة والتجارة ، وتتعرض للحياة الفكرية والعلمية وما طرأ عليها من تغيير وتطور . وهى ـ فوق ذلك ـ لا تعزل مصر عن اطارها الاسلامى العريض ، بل تتابع علاقتها بالعالم الاسلامى الذى أصبحت تنتمى اليه بعد الفتح العربى ، فتتعرض لموقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى قامت فى الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين ، فالخلفاء الأمويين ، فالخلفاء العباسيين ، وتتابع تأثر مصر بهذه الحركات ، وتأثيرها فيها .

وكعادة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، فقد استعانت بعدد ضخم من أهم المصادر التاريخية القديمة والحديثة ، العربية والافرنجية ، كما زودت الكتاب بالخرائط اللازمة ، وقدمت خدمة جليلة للقراء بعمل كشاف فى نهاية الكتاب يسهل الوصول الى الأعلام والأماكن والمذاهب والمواقع الحربية وغيرها ، مما يكتمل به هذا العمل العلمى الهام ·

وأملى أن أكون بتقديم هذا الكتاب قد قدمت خدمة هامة للجيل الجديد من شباب الباحثين والمثقفين ، الذين فاتهم قراءة هذا الكتاب عند صدوره فى طبعته الأولى منذ نحو ثلاثين عاما . وأن أدعم المكتبة العربية الحديثة بكتاب علمى هام جدير بالقراءة ·

رئيس التحرير

د· عبد العظيم رمضان

تصدير الكتاب

يتناول هذا الكتاب البحث فى تاريخ مصر الاسلامية فى عصر الولاة . وهذا العصر يبدأ من فتح العرب لمصر البيزنطية فى سنة ٢١هـ (٦٤٢م) وينتهى بقدوم أحمد بن طولون الى مصر فى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) وتأسيسه لأول دولة مستقلة فى مصر الاسلامية . وقد اصطلحنا على تسمية هذه الفترة الطويلة من تاريخ مصر باسم عصر الولاة لأن مصر كانت حينذاك ولاية تابعة للخلافة يحكمها ولاة من قبل الخلفاء فكانت الخلافة تبعث بالولاة من مقرها فى المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين ، ومن الكوفة زمن على بن أبى طالب ، ومن دمشق زمن الأمويين ، وأخيرا من بغداد وسامرا زمن العباسيين .

وكان هؤلاء الولاة عربا حتى نهاية الدولة الأموية حين كان الحكم والحرب والسيادة للعرب دون غيرهم ، وأعنى بالعرب آنذاك أبناء القبائل العربية شمالية كانت أو جنوبية .

وحين أسقطت أسرة بنى العباس حكم الأمويين وتربعت على عرش الخلافة دونهم ، كان بعض ولاة مصر على عهدهم من العرب ٠ وكان آخر وال عربى هو عنبسة بن اسحق الذى حكم بضع سنين فى أواخر هذا العصر (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ) ٠

أما بقية ولاة مصر فى العصر العباسى فكانوا من الفرس والخراسانية والأتراك ، ذلك أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس وخاصة الخراسانيين ، ولم تكن الدولة العباسية دولة عربية بحتة كما كانت سابقتها ، وانما كانت دولة جميع الشعوب الاسلامية ، ولم يكن العرب فيها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التى احتوتها الامبراطورية الاسلامية ، فكانت الدولة العباسية أشبه شىء بجامعة دول اسلامية ٠ واحتل الفرس فى بداية العصر العباسى ، المناصب الرفيعة فى الدولة بعد أن كان استخدام الموالى فى الوظائف نادرا ٠

وقد حلت محل الأرستقراطية العربية طبقة من الموظفين أخذت من كافة الأجناس التى دانت لسلطان الخلافة ٠ ولكن العباسيين الأوائل قربوا اليهم الخراسانيين بصورة خاصة من دون عناصر الدولة الأخرى وأطلقوا عليهم الأنصار والأبناء واعتبروهم شيعتهم وكونوا منهم زهرة جيوشهم ٠ لكن منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ـ٢٢٧هـ) فى أواخر العصر العباسى الأول ، أخذ الأتراك يحتلون مكان الصدارة فى الجيوش العباسية ، بل ان المعتصم أبعد العرب نهائيا عن جيوش الخلافة وأسقط من كان منهم مثبتا فى الديوان وبعث بذلك الى كافة الأمصار الاسلامية ٠ وما لبث الأتراك بعد ذلك أن تحكموا فى شئون الخلافة العباسية المدنية كما تحكموا فى شئونها الحربية من قبل ٠

ولما كانت مصر ولاية تابعة للخلافة فى عصر الولاة فقد ارتبط تاريخها بتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتى نهاية

هذا العصر ارتباطا له قيمته وخطره كما سيتبين من فصول هـــذا الكتاب ·

ولا شـــك أن عصر الولاة له أهمية بالغـــة فى تاريخ مصر الاسلامية اذ تكونت فيه الأسس التى قامت عليها مصر الاسلامية ، فتحولت مصر خلال هذه الفترة التى تقرب من قرنين ونصف قرن من الزمان الى دولة اسلامية الدين عربية اللغة بعد أن تخلت عن ماضيها وحضارتها القديمة الى حد كبير ، ورمت بنفسها فى أحضان الاسلام · وقد شاركت مصر الاسلامية منذ هذا العصر بنصيب كبير فى الحضارة الاسلامية التى بلغت شأوا كبيرا زمن الخلفـــاء الفواطم وسلاطين المماليك ؟

مقدمة

نهاية الحكم البيزنطى فى مصر

كانت مصر قبيل قدوم العرب اليها ولاية بيزنطية ٠ ونعرف أن الأباطرة البيزنطيين لم يدخروا وسعا للحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب التى كان يقع عبؤها على كواهل المصريين دون غيرهم ممن كانوا يقيمون فى مصر ٠ وقد عومل الشعب المصرى بوجه عام معاملة المغلوب على أمره فلم يكن له حق الاشتراك فى حكم بلاده أو فى جيش بلاده ، ولم تكن اللغة المصرية هى اللغة الرسمية وانما كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالسة حتى الفتح العربى ٠

وكانت المسائل الدينية قبيل الفتح العربى هى مشكلة المشاكل آنذاك ٠ والمعروف أن مصر كانت فى طليعة البلاد التى تسربت اليها المسيحية فى القرن الأول الميلادى ، وأخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى ٠ الا أن الأباطرة الوثنيين ناصبوا المسيحية العداء ، وظلت المسيحية فى مصر تلقى اضطهادا كثيرا وتسامحا قليلا الى أن ولى عرش

الامبراطورية الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ـ٣٠٥م) فبلغ فى عهده اضطهاد المسيحيين أقصاه · وقد قابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بقوة واصرار . وبدأت الكنيسة القبطية تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤م) نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من أثر عظيم فى نفوس الأقباط ·

وحينما اعترف الأباطرة بالدين المسيحى منذ بداية القرن الرابع الميلادى لم تخف المشكلة الدينية بل زادت تعقيدا · اذ تدخل الأباطرة فى المنازعات التى قامت بين المسيحيين حول طبيعة المسيح وصفته وعقدوا من أجل ذلك المجامع الدينية ، وبلغ ذلك النزاع الدينى بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية (أو بيزنطة) أقصاه منذ حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح ، وقد عقد الامبراطور البيزنطى من أجل ذلك مجمعا دينيا فى خلقدونية Chalcedon بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م ، وقد أقر ذلك المجمع ماذهبت اليه كنيسة القسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين ، وقرر أن مذهب الكنيسة المصرية القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان بطرك الاسكندرية من الكنيسة · ولم يقبل البطرك الاسكندرى ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكسيين » وهى كلمة يونانية معناها اتباع الديانة الصحيحة · ولا زال سواد أقباط مصر يعرفون بذلك الاسم الى يومنا هذا · أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين وذلك لأتباعهم مذهب الملك أو الامبراطور ·

وقد أطلق مسيحيو الشرق على الأقباط الأرثوذكس أيضا اسم اليعاقبة ، كما أطلقوا على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية اسم

الكنيســـة اليعقـــوبية ، وذلك نســـبة الى يعقـــوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها Edessa (أورفه الحالية فى تركيا) الذى كان يقول بمذهب الطبيعة الواحدة فى النصـــف الثانى من القرن السادس الميلادى والذى زار مصر ضمن بلاد الشرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية أى القائلة بمذهب الطبيعة الواحدة Monophysite • ولكن يظهر من الحوليـــات المصرية أن الأقباط لم يطلقوا على أنفسهم اسم يعاقبة •

وقد قابل المصريون الاضـــطهاد الاقتصـــادى والدينى بالمقاومة الايجابية أحيانا • ولكن الغالبية من الشعب المصرى لجأت الى المقاومة السلبية وذلك بالفرار الى المعابد والأديرة ، وبهجر مزارعهم وقراهم مما أدى الى انتشار الفوضى فى البلاد والى اضطراب جميع المرافق الاقتصادية •

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة أطنابها غزا الفرس مصر سنة ٦١٦م فى عهد ملكهم كسرى الثانى وظلوا يحتلون مصر الى أن حارب هرقل ، امبراطور الروم ، بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩م فاضطروا للجلاء عنها •

وقد رأى هرقل بعد أن أنقذ الدولة البيزنطية من الفرس ، أن ينقذها من الخلاف الدينى فأصدر أمرا أو صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المســـيح وصفته وأن يعترفوا جميعـــا بأن له ارادة واحدة • وأسند هرقل الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحـــد هو قيرس ، ويعرف عنـــد مؤرخى العرب باسم المقوقس • وقبل أن يصـــل قيرس الى الاسكندرية فى سنة ٦٣١م هرب البطرك القبطى بنيامين توقعا لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض المذهب الجديد • وكان اضطهاد قيرس للمصريين عظيما فاق كل اضطهاد ، وبذلك

تمهد السبيل لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية . تلك هى دولة العرب ٠

وفى سنة ١٨هـ (٦٣٩م) عندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب الى الجابية بالقرب من دمشق للاشراف على آخر ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية فى بلاد الشام وفلسطين ، تظهر لأول مرة فى المصادر العربية فكرة غزو مصر ٠

والواقع أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين وذلك لتأمين الفتوح الاسلامية فى الشام ، ولتأمين المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم وهى السويس الحالية ٠ ولا يبعد أن يرسل الروم (أى البيزنطيون) حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بممتلكاتهم فى الشام ٠

والواقع أن مصر والشام ربطتهما من أقدم العصور مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة ، وغالبا ما خضعت مصر والشام فى العصور المختلفة لحكم دولة واحدة ٠ ولم يكن العرب بغافلين حينئذ عن ثروة مصر الطبيعية ولا عن موقعها الجغرافى الممتاز فقد جاءها كثير منهم للاتجار فى أيام الجاهلية ، نذكر منهم عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة ٠

وقد وفد الى صعيد مصر منذ أقدم العصور كثير من التجار العرب وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى ان المؤرخ والجغرافى اليونانى سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥م قال عن مدينة قفط Koptos فى الصعيد انها مدينة نصف عربية ٠

ونلاحظ أن مصر فى القرن السادس الميلادى وأوائل السابع لم تعد اقليما بيزنطيا بالمعنى الصحيح ، فقد كانت السلطة البيزنطية عليها ضعيفة وأخذت البلاد من الوجهات السياسية والاقتصادية

والادارية والدينية تتهيأ لهذا الحادث الكبير ، وهو الانتقال من أيدى البيزنطيين الى أيدى العرب · فقد كانت العلاقة بين بيزنطة وبين مصر علاقة مادية بحتة بمعنى أن مصر تؤدى الخراج المفروض عليها سنويا، قمحا وغلالا وأموالا ترسل من الاسكندرية الى القسطنطينية، ولا يعنى البيزنطيون بغير ذلك · أما عن كيفية جباية الضرائب وهل كانت تجبى بالعدل ؟ فقد كان ذلك متروكا للسلطة المحلية · وكانت الضرائب مصدر شكوى للفلاحين وكانت تقع مظالم كثيرة فى جباية تلك الأموال ولا سيما على الفلاح الصغير بحيث وجد فى مصر نظام الحماية ، فلكى يهرب الفلاح من كثرة الضرائب كان يضع نفسه تحت حماية أحد كبار الملاك ، ولكنه كان فى الواقع كالمستجير من الرمضاء بالنار · فبمضى الزمن كانت تصبح أرضه ملكا للكبير الذى وضع نفسه تحت حمايته ويتحول الفلاح من مالك صغير الى مجرد عامل أجير لهذا الكبير ، وبذلك وجد ما يسمى بالأبعاديات يملكها ملاك كبار أشبه بأمراء اقطاعيين ، بحيث أصبحت البلاد موزعة بين عدة أسر كبيرة قوية وغنية ، وغالبا ما كانت هذه الأسر من اليونان المستوطنين ، وبذلك انتهت البلاد فى القرن السابع الميلادى الى نظام أشبه بالنظام الاقطاعى ·

أما من الناحية الادارية فقد كانت البلاد مقسمة اداريا الى خمسة أقسام كبرى وهى :

١ ـ الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم البيزنطى ·

٢ ـ شرقى الدلتا ويحكمه دوق ·

٣ ـ غربى الدلتا ويحكمه دوق ·

٤ ـ مصر الوسطى ويدخل فيها الفيوم ويحكمها دوق ·

٥ ـ مصر العليا ويحكمها دوق ·

[illegible] وحيث [illegible] الأ[illegible] إذ
[illegible] البيزنطي المقيم في بالإسكندرية [illegible] وكان
[illegible] بالحكم
[illegible] البيزنطية [illegible] التي [illegible] في أول [illegible] وهي
[illegible] الجيش [illegible] إذ كانت [illegible]
[illegible] في [illegible] الأقباط [illegible]
البلاد [illegible] الرئيسية [illegible]
الموظفين في أعمالهم والقضاء على [illegible] الطرق [illegible]
الدينية [illegible] جباية [illegible]

[illegible] من الناحية الدينية فقد كان الأقباط [illegible] على [illegible]
[illegible] البيزنطية [illegible] كيف تم فتح العرب لمصر

أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر ، فسار عمرو بن العاص من فلسطين على رأس جيش قيل انه كان مكونا من اربعة آلاف محارب وذلك في سنة ١٨ هـ (٦٣٩م).

وقد سلك عمرو بن العاص فى الفتح الطريق الذى سلكه أغلب غزاة مصر وفاتحيها ، وهو طريق الصحراء الشرقية مساحلا للبحر الأبيض المتوسط [illegible] الى العريش ومنها الى الفرما (١) ، وظل [illegible] أم دنين (٢) ، ونلاحظ أنه في الطريق من العريش [illegible] أم دنين اشتبك عمرو بن العاص مع الحاميات البيزنطية في مواقع مختلفة . وفى أم دنين كان القتال عنيفا بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا

---

(١) الفرما هى مدينة بلوز Pelusium القديمة وكانت على البحر الابيض المتوسط شرقي بورسعيد الحالية

(٢) ام دنين أو تندونياس قرية كانت تقع شمال حصن بابليون الذى توجد بقاياه الآن فى مصر القديمة بجوار [illegible]

في حصن بابليون ، وقد اضطر عمرو بن العاص الى أن يستنجد بالخليفة عمر بن الخطاب الذي أمده بقوة كبيرة قيل أن عدتها كانت أربعة آلاف رجل وقيل اثنا عشر الفا من الرجال .

[illegible] في القتال [illegible] فائقة من [illegible]
[illegible] العرب [illegible]
[illegible] بابليون الأولى
[illegible] (٦٤١ م) [illegible] هذه المعاهدة [illegible] أهمية [illegible]
[illegible] بابليون [illegible] حاضرة مصر ولكنها كانت أهم مركز [illegible] نظراً لموقعها
على رأس الدلتا [illegible] الطريق [illegible] الى
الاسكندرية [illegible]
[illegible] أن بابليون كانت بمثابة قلب مصر [illegible] الحقيقية ،
[illegible] العاصمة الفعلية [illegible] الاسكندرية [illegible] التاريخ [illegible]
[illegible] سقوط [illegible] الدولة [illegible]
[illegible] الذي كان [illegible] الدولة [illegible]
[illegible] سقوط [illegible] ١٨٧ [illegible] الذي
[illegible]

وتلاحظ أن معاهدة بابليون الأولى هذه حددت مركز المصريين ، أما فيما يتعلق بالبيزنطيين او الروم فقد اشترط قيرس ضرورة موافقة الامبراطور هرقل والا عادت الحالة بين الروم والعرب الى ما كانت عليه . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح المصريون أهل ذمة [illegible] الجزية ونصت المعاهدة على أن قيمة الجزية تتوقف على مقدار [illegible] او [illegible] في كل عام ، وأن تدفع الجزية على ثلاثة أقساط [illegible] السنة [illegible]

وقد وافق الخليفة على هذه المعاهدة . أما الامبراطور فانه وبخ المقوقس على قبولها وطلب من الروم أن ينهضوا لمحاربة العرب ،

واستجاب الروم لنداء الامبراطور واستعدوا استعدادا عظيما لقتال العرب فى الاسكندرية ، واستعد هرقل لمباشرة هذه الحرب بنفسه ، ولكن شاءت الأقدار أن يموت هرقل وأن يكون لموته أكبر الأثر فى اضعاف شوكة الروم الى حد كبير · وقد كان فتح الاسكندرية من الصعوبة بمكان اذ كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى اليهم عن هذا الطريق · أضف الى ذلك أن حصون الاسكندرية كانت منيعة وكان يحميها من جهة البر الغياض والبحيرات وترعة الاسكندرية · واستبسل العرب لكن مقاومة البيزنطيين كانت عنيدة ، واستبطأ الخليفة عمر بن الخطاب فتحها ، وفى الوقت نفسه كانت الامبراطورية البيزنطية يسودها النزاع والفتن الداخلية التى نشبت من أجل العرش بعد موت هرقل · وتأزمت الظروف ولجأ البيزنطيون الى انهاء الحرب مع المسلمين بعقد صلح حتى يتفرغوا هم للمشاكل الداخلية الخطيرة ، فذهب قيرس الى بابليون حيث كان عمرو بن العاص ـ وهناك طلب الصلح فرحب عمرو به وعقد معاهدة فى سنة ٢٠هـ (٦٤١م) اصطلحنا على تسميتها معاهدة بابليون الثانية وذلك لانعقادها فى بابليون وتمييزا لها عن بابليون الأولى ، أو معاهدة الاسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها · وقد نصت هذه المعاهدة على عقد هدنة بين الروم والعرب مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى سبتمبر سنة ٦٤٢م وأواخر سنة ٢١ هـ يكف فى أثنائها الروم والعرب عن القتال كما يتم خلالها جلاء حامية الروم عن الاسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يعود جيش رومى ثانية الى الاسكندرية وألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا فى أمورهم وأن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية · ولضمان نفاذ هذه الشروط نصت المعاهدة على أن يأخذ المسلمون مائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند رهائن ·

وعقب معاهدة الاسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا الى سائر الأقاليم في مصر ٠ والثابت فيالمصادر القديمة أن فريقا من الأقباط ساعدوا الجيش العربى فى العمليات الحربية ضد البيزنطيين ٠ ووقف فريق آخر موقف الحياد لأنهم يعرفون أن مساعدتهم للعرب معناها انتقالهم من تبعية الى تبعية أخرى ، ولم يكن هذا الفريق فى موقف يستطيع معه طرد البيزنطيين والعرب فى وقت واحد ٠ وهناك أقلية من الشعب المصرى حاربت فى صفوف البيزنطيين ظنا منها بأن النصر سيكون حتما للبيزنطيين وليس للعرب ٠

ولم يقف العرب عند فتح مصر بل اتجهوا الى برقة (١) لتأمين فتح مصر ، فسار عمرو بن العاص اليها وفتحها وفرض عليها الجزية . ثم غزا عمرو طرابلس (٢) وقيل انه فكر فى غزو بلاد المغرب كلها لكن الخليفة نهاه عن ذلك ، ولا ريب أن الخليفة تخوف من تفرق المسلمين فى بلاد كثيرة ، ولما تثبت أقدامهم فيها بعد ٠

وكان فتح برقة خاتمة لفتح وادى النيل كله اللهم الا اذا تذكرنا تأمين الحدود الجنوبية ، فان عمرا لم يغفل تأمين هذه الحدود ، فبعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح على رأس حملة الى النوبة فى سنة ٢٠هـ أو فى سنة ٢١هـ ، وكانت النوبة فى ذلك الحين مملكة قوية مستقلة استعصى غزوها على عبد الله بن سعد فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع ٠

لكن عبد الله بن سعد عاد ثانية الى غزو النوبة فى سنة ٣١هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان ووصلت حملته

---

(١) كانت برقة تسمى فى العهد العربى باسم انطابلس ٠
(٢) كانت طرابلس تعرف فى العهد العربى باسم اطرابلس ٠

الى دنقلة (١) واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط (٢) .
وكان البقط عبارة عن معاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية كان أهم نصوصها الا تعتدى احداهما على الأخرى وأن تؤدى النوبة الى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة وأن تؤدى مصر الى النوبة قدرا معينا من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضا .

ولم يـ... ...بردم بمعاهده الاسكندريه طويلا اذ بدأت الدولة البيزنطية تفيق من الفتن الداخلية فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى حفيد هرقل الذى أرسل الى الاسكندرية أسطولا كبيرا لاجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما وذلك فى سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) وتم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية وزحف بعدها الى ما يليها من بلاد الوجه البحرى وتحرج مركز العرب فى مصر وكان واليها إذ ذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وقد بعث أهل مصر الى عثمان يسألونه أن يرسل عمرا لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم وقد تم اجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى عمرو بن العاص على الاسكندرية عنوة وقتل قائد جيش الروم . وهكذا تم فتح العرب لمصر

---

(١) كانت تعرف فى العهد العربى باسم دمقلة .

(٢) الراجح أن كلمة بقط من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد او اتفاق وقيل انها كلمة مصرية قديمة بمعنى عبد ، وقيل أيضا أنها كلمة عربية بمعنى نبذة او قطعة او فرقة .

الباب الأول

نظم الحكم فى عصر الولاة

١ ـ النظام الادارى

جرى العرب على سياسة ادارية حكيمة فى معظم البلاد التى فتحوها والتى كانت تتمتع بحضارات قديمة ، وهى الابقاء على النظم الادارية لتلك البـــلاد وعلى الموظفين من أبنـــاء تلك البلاد واحتفظوا هم بالمناصب الرئيسية للاشراف على الادارة بوجه عام ولتنفيذ ما يتطلبه الاحتلال العربى الجديد ٠

فكان يمثل الخليفة فى مصر الوالى أو الأمير وكان مقر الوالى فى مصر هو « دار الامارة » وكان الوالى هو الرئيس السياسى لمصر ولم يـكن مسئولا عن عمله الا أمام الخليفة ٠ وكان الـوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة ولذا كان يطلق عليه لقب « أمير الصلاة » وكانت الولاية تعرف أيضا باسم « ولاية الصلاة » ونستدل على أهمية هذا اللقب من أن المسلمين كانوا يعتبرون أن امامة الصـــلاة مما يختص به الخلفاء وكانوا يطلقون على الخليفة لفظ امام ٠

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى رئاسة جيش الولاية ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر . فكان والى مصر يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر ويقود بنفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها أو يرسل من يقود الجيش نيابة عنه . وكان مثل تلك الحملات فى السنوات الأولى بعد الفتح بوجه خاص ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة . كذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التى سارت لغزو أفريقية والنوبة كما غزا الروم فى غزوة ذى الصوارى .

وكان الوالى يشرف أحيانا على ادارة المالية المعبر عنها « بالخراج » مما يجعله مطلق التصرف فى الدولة . ولكن كان الخلفاء يخشون فى معظم الأحيان عظم ازدياد نفوذ الوالى فيسندون الخراج الى شخص آخر هو « عامل الخراج » ويكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد من سلطة الوالى كثيرا اذ يصبح عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء ، ولذلك كان لعامل الخراج أهمية كبيرة ، وكثيرا ما يكون منافسا للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليلا على أهمية عامل الخراج أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الاسكندرية فى سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرو على الصلاة وأن يولى عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو : « أنا اذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »(١) ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٧٨ .

وكان للوالي أيضا الإشراف على الشرطة . وكان مقر الشرطة في مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص . ولما بنى العباسيون مدينة العسكر التي كانت تقع شمالي الفسطاط عملت شرطة أيضا في العسكر وقيل لها الشرطة العليا . ولا نرجع تسميتها الشرطة العليا إلى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكن منذ عهد انشاء العسكر سنة ١٣٢ هـ قسمت الفسطاط إلى « عمل فوق » و « عمل أسفل » بل إن صاحب الشرطة السفلى في الفسطاط كان أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسي الأصيل في الحاضرة (١) وكان الوالي هو الذي يعين صاحب الشرطة وفي حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذي يعين صاحب الشرطة . وكان صاحب الشرطة يؤم الناس في الصلاة إذا مرض الوالي ويحكم الولاية إذا خرج الوالي من مقر ولايته ، ولذا نجد أنه كثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على البلاد إذا ما عزل الوالي أو مات أو تنحى عن أمور الولاية .

وكان الوالي يعهد إلى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التي يقضي بها ، وبنشر الأمن في البلاد ، كما كانت وظيفة صاحب الشرطة في الخلافة الإسلامية . ومن المحتمل أن صاحب الشرطة في الحاضرة كان له أعوان في سائر أنحاء البلاد ، ولكن الراجح عندنا أن ولاة المدن والأقاليم في ريف مصر كان لكل منهم شرطة يتخذها لإقرار الأمن والمحافظة على النظام في منطقة حكمه .

وكان أصحاب الشرطة يهتمون أيضا بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق ...

(١) راجع خطط المقريزي ج ١ ص ٥ و ٢٩٩ والكندي : الولاة والقضاة ص ١٠٢ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١١٨ .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة فى تلك الفترة أيضا وظيفة صاحب البريد ، ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين ، انما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية • ويقال : ان معاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة وتبعه فى ذلك الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون ، ولذا نجدهم يهتمون بعمارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة • وزاد اهتمام العباسيين بالطرق زيادة كبيرة حتى أصبحت بغداد مركزا تتشعب منه الطرق الى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدى الى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدى الى روما • هذا ولم يكن البريد نظاما يستعمله الشعب انما كان نظاما رسميا حكوميا • وقد استعمل الخلفاء نظام البريد فى أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم الى الولايات المختلفة ولتلقى الأخبار ، ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الأقاليم وعمالها •

وكانت مهام وظيفة صاحب البريد تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها ، ولذا لم أجد فى المصادر القديمة ذكرا لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء الى مصر الا فى موضع أو موضعين •

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة اداريا الى قسمين رئيسيين : مصر العليا ومصر السفلى ، وكان هذان القسمان مقسمين الى أقسام أو كور ، ونلاحظ أن كورة لفظ يونانى احتفظ به العرب ، وكان فى مصر حينذاك نحو ثمانين كورة • وكانت الكور مقسمة بدورها الى قرى • والواقع أن العرب احتفظوا الى حد كبير بنظم البيزنطيين الادارية ، بل انهم أبقوا على الأسماء والألفاظ اليونانية التى كانت تستعمل من قبلهم فنجد مثلا قرة بن شريك والى مصر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٠ ـ ٩٦ هـ) يرسل

كتابا الى بسيل صاحب اشقوه (١) يطلب منه أن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية الى جسطال كورته والى موازيت القرى . ونلاحظ أن كلمة جسطال كانت تعنى حينذاك الموظف المشرف على مالية الكورة أى منـدوب ديـوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمعناها رؤساء أو مشايخ القرى . وهاتان الكلمتان لا تمتان بصلة الى اللغة العربية وانما هما مشتقتان من البيزنطية ، فكلمة جسطال مقابلة للكلمة البيزنطية أوجستاليوس ، أما كلمـــة مازوت فهى مقابلة للكلمة البيزنطية ميزوتروس .

ومع أن مصر كانت مقسمة اداريا الى هذه الأقسام الا أنها كانت جميعا تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محليـا بأمور أقاليمهم ، فكان الحكم فى مصر مركزيا الى أقصى حد ، وكانت كل كبيرة وصغيرة ترجع الى والى مصر ، وكما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى كان للوالى صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر ، وكان للوالى كتبة كثيرون يستعين بهم فى تحرير رسائله ، وبالتالى كان فى مصر منذ ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان انشاء .

وكان والى مصر بعد الفتـح العربى يشرف على بـلاد برقة وما يليها من شمال افريقية ، على أن هذا الاشراف لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها فى كثير من الأحيان . وفى سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) أرسل الخليفة الى افريقية موسى بن نصير واليا

---

(١) كانت اشقوة كورة من كور الصعيد واسمها الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا فى مديرية أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١م على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شعاعا من النور على حكم الأمويين عامة فى مصر وعلى حكم الوالى قرة بن شريك خاصة .

على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت افريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر بعد أن كانت تتبعها فى الادارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

ونلاحظ أن ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب [illegible] فقد كانت الدولة [illegible] فى سياستها [illegible] الأرستقراطية العسكرية [illegible] وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قسطا كبيرا من الحرية [illegible] ولهذا ظهر فى الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وخالد بن عبد الله القسرى وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير وغيرهم .

ففى مصر نجد الخليفة معاوية بن أبى سفيان يولى عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها ويجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على ادارتها ، فظل عمرو بن العاص فى ولايته الثانية على مصر من سنة ٣٨ هـ الى سنة ٤٣ هـ حين وفاته ، وظل مسلمة بن مخلد والياً على مصر خمسة عشرة سنة (٤٧ – ٦٢ هـ) وتوفى وهو وال عليها . وكذلك بقى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر حوالى احدى وعشرين سنة (٦٥ – ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها . وكان عبد العزيز شبيها بملك مستقل فى حكم البلاد من مقره فى الفسطاط [illegible] ثم من حلوان [illegible] التى [illegible]

أما فى العصر العباسى فقد تأثرت مصر بالسياسة العامة للدولة ، ذلك أن العباسيين أشركوا غير العرب فى الحكم وساووهم بالعرب ، ففقدت القبائل العربية امتيازاتها وزال الفرق بين العرب وبين المسلمين من غير العرب . وكان السبب الرئيسى لذلك هو اعتماد العباسيين على الفرس فى دعوتهم وفى قيام دولتهم ،

فالخلافة العباسية أشبه بجامعة دول إسلامية بعكس ما كانت عليه الحال في العصر الأموي الذي كانت فيه الدولة عربية خالصة [illegible] الدولة [illegible] الوظائف [illegible] العربية [illegible] من الموظفين [illegible] من كافة الأجناس التي دانت لسلطان الخلافة ، أي أن الدولة العباسية لم تكن دولة عربية وإنما كانت دولة جميع الشعوب الإسلامية ولم يكن العرب فيها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التي تتألف منها الإمبراطورية الإسلامية .

ولذلك نلاحظ مجيء ولاة من الفرس إلى مصر زمن الخلافة العباسية ، وكان آخر وال عربي على مصر هو عنبسة بن إسحق الذي حكم [illegible] نهاية عصر الولاة العرب [illegible] (٢٣٨ – ٢٤٢ هـ) .

كما نلاحظ أن الخلافة العباسية سارت على سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم منذ زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) ، وقد كان المعتصم من أم تركية ، ورأى في الأتراك قوماً يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب ، وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه كالفرس . لكن نفوذ الأتراك سرعان ما تغلغل في الدولة العباسية وأصبح بيدهم شئونها الحربية والمدنية ، وتأثرت مصر بذلك الاتجاه الجديد في الدولة فوليها ولاة من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركي (٢٤٢ – ٢٥٣ هـ) .

كذلك نلاحظ في العصر العباسي كثرة تغيير الولاة ، وقد يكون [illegible] بعد مقر الخلافة العباسية ، أعني بغداد وسامراء ، عن مصر [illegible] الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر في الحكم طويلا لئلا يطمعوا في الاستقلال بالبلاد ، [illegible] يكون [illegible]

الى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقى بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية ، وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا سار هؤلاء الخلفاء على سياسة تغيير الولاة فى مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كذلك استخدم الخلفاء العباسيون البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة · على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الاقطاع التى اتبعتها ، فمنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) اتبع الخلفاء العباسيون سياسة اقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معينا للخلافة · ولا ريب فى أن النظام الاقطاعى فى الشرق كان يختلف اختلافا كبيرا عنه فى الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرقى والغربى أن الاقطاع الأوربى كان يتوارث فى أسرة صاحب الاقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة ، أما فى الشرق فلم يكن من حق صاحب الاقطاع أن يورث اقطاعه ، كذلك كان السكان فى الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام فى الشرق ·

وقد عرفنا من أوراق البردى أن المعتصم أقطع القائد التركى أبا جعفر أشناس مصر فى سنة ٢١٩هـ ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه ، وكان اسم أشناس يذكر فى خطبة الجمعة مع الخليفة وقد ضربت السكة باسمه أيضا كما نقش اسمه على الموازين والمكاييل ، وظل أشناس صاحب اقطاع مصر ويعين ولاتها من قبله الى أن توفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأقطعت مصر بعد ذلك لنفر من الترك · على أن سياسة اقطاع الأتراك ، ولاية مصر أدت الى نتيجة لم تكن فى الحسبان ، اذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم

بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون
لهم على المنابر كما يدعى للخليفة . واذا كان الخلفــــاء يراقبون
أصحاب الاقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد فانه لم يكن فى استطاعتهم أو
لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم . ولم يكن من العسير على نائب
وال له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد
أن تطرق الضعف الى مركز الخلافة نفسها . وهذا ما حدث فى
عهد أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها
دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة
فى تاريخ مصر الاسلامية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ : ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م)

٢ ـ النظام المالى

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمى الى استغلال مصر ، وان اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال . اذ بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتط فى جمع الضرائب ، نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه ، وليس من مصلحته أن يسلخهـا ، وذلك كيلا يجف معين البلاد وتتأثر بذلك مالية الدولة ، ولعل الخليفـة الأموى سليمـان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ) يمثل النظرية الأولى أبلغ تمثيل حين يكتب الى متولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى قائلا « احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم » (١) أما الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) فيمثل النظرية الثانية التى تنطوى على عدم المبالغة فى جمع الضرائب فقد كتب الى الحجاج بن يوسف عامله على العراق « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » (٢) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٣ .

الجزية والزكاة

كانت الجزية من أهم الضرائب فى مصر فى عصر الولاة · والجزية معناهــا ضريبــة الرأس التى فرضهــا العرب على أهل الذمة (١) وقد فرضت الجزية على أهل مصر بعد معاهدة بابليون الأولى · وهاك نص ما ذكره المؤرخون : « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها (٢) من القبط ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء ··· وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الدينـــاران ، رفع ذلك عرفاؤهم (٣) بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة » (٤) ويذكر البلاذرى (٥) فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيرا ·

---

(١) أهل الذمة معناها المسيحيون واليهود الذين يقطنون ديار الاسلام ·

(٢) أعلاها اى الوجه القبلى وأسفلها اى الوجه البحرى ·

(٣) العريف : العالم بالشىء ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء ·
ويذكر De Sacy أن عريف مقابله للكلمة اليونانية جرافس اى كاتب · انظر
Sur la nature et les révolutions du droi dte propriété, p. 179.

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد الفرنسى (ص ٦٣ ـ ٦٤) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣) ·

(٥) فتوح البلدان ص ٢١٤ ·

ولا نفهم من هذا اذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم ·

أى أنه اذ استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا فى دفع الجزية ·

ونحن نستبعد أن يكون العرب قد ساووا بين جميع المصريين فى دفع الجزية · اذ أن هذا لا يتفق وسياسة العرب التى كانت ترمى الى التحبب الى أهل البلاد والى توطيد سلطانهم فيها وخاصة فى أول عهدهم بالفتح · ولو كان العرب قد فعلوا هذا لثار عليهم المصريون من أول الفتح ولكان العرب قد عادوا بعد ذلك الى تعسف الحكم الرومانى والبيزنطى الذى كان يعفى ذوى النفوذ والثراء من الأعباء المالية أو من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان · كما أن هذا لا يتفق والاسلام الذى يدعو الى الانصاف والعدل ·

وقد أيدتنا الأوراق البردية فيما نذهب ونفت ما ورد فى المصادر من القول بمساواة الذميين فى دفع الجزية ، وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص · ففى كتاب من قرة بن شريك الى صاحب كورة أشقوة نجده يأمره بأن يرسل كشفا بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أداؤها وما يملكه كل رجل من الأراضى وما يقوم به من الأعمال · ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من يتنكب طريق العدل (١) ·

---

(١) Bell : Translations of the Greek Aphrodito, der Islam, II, p. 272.

ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفا بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلا فى عمله ، ولما هدده اذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته ، ولا اكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم ٠

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضا كشوفا من القرن الثالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكر فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هـذه الجزية باختلاف كل شخص ، وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية ، فشخص يدفع دينارا وثان دينارا ونصف دينار وثالث ثلثى دينار ورابع دينارا وثلثا ٠ وهكذا (١) ٠

وأما الفقهاء المسلمون فيجمعون على أنه كانت هناك ثلاث فئات بخصوص الجزية فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط اثنا عشر درهما (٢) ٠

وطبيعى أن كلام الفقهاء يوحى الينا ـ بعكس كلام المؤرخين ـ بأن تقدير الجزية كان فيه شيء من العدل وان لم يكن العدل كله ٠ فقد نستطيع تقسيم فئات الشعب الى ثلاث طبقات بصفة عامة ولكن من الطبيعى أن هناك اختلافات وفروقا كثيرة فى الثروة

---

(١) Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library vol. III. pp. 197-198, 201-203, 217, 219, 220-221.

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ، ويحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٥١ ، والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ ٠

والامكانيات بين أفراد الطبقة الواحدة · وعلى أية حال فان كلام الفقهاء كان فى معظم الأحيان نظريا لا يعدو أن يكون أمانى وأملا فى السير نحو المثل العليا · فالفقهـاء هنا يؤيدون فكرة تقدير الجزية حسب ثروة الشخص بصفة عامة ·

والواقع أن العرب لم يحددوا قيمة الجزية على أهل الذمة فى مصر ، وانما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابليون الأولى (١) ·

ويذكر المؤرخون أن صاحب اخنا (٢) قدم على عمرو بن العاص وقال له : « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية ··· فقال عمرو وهو يشـير الى ركن الكنيسة : لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » (٣) ·

أى أن تقدير الجزية فى مصر ترك للوالى أو الخليفة · كذلك روعى فى الجزية تناسبهـا مع ثروة الشخص كما أثبت ذلك فى أوراق البردى التى ترجع الى هذا العصر ·

وكانت الجزية فى مصر تدفع بالدنانير وكسورها ·

---

(١) انظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ ، وابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ١١٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٥ ·

(٢) اخنا بالكسر ثم السكون كورة بالقرب من الاسكندرية · انظر ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ١٦٦ ·

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ ·

وكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة كان يجبى من المسلمين الزكاة أو الصدقة . ويقول المقريزى (١) ان أول من جبى الزكاة بمصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

ولكن أوراق البردى أثبتت غير ذلك . اذ تبين منها أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية الزكاة ويتسلم الأهالى ايصالا أو براءة بعد تأدية ما يجبى عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسلامية . ولدينا ايصال يرجع الى القرن الثانى الهجرى (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص (٢) .

الخراج والملكية العقارية :

ومن الضرائب الهامة فى عصر الولاة الخراج ، والخراج معناه ضريبة الأرض أو الضريبـة العقارية . والمعروف أن مصر فتحت عنوة ولكن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ، ومنحوا المصريين عهدا عرف باسم صلح بابليون الأول اذ أن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا للمصريين ، كذلك عندما فتح العرب الاسكندرية سنة ٢٥ هـ عنوة كان فتحها انتصارا على الروم ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين فى معاهدة بابليون الأولى .

وهناك فرق بين الأرض التى تفتح صلحا والتى تفتح عنوة . أما الأرض التى تفتح صلحا أى بدون قتال وبمقتضى عهد فيتفق أهلها مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج الذى يؤخذ منهم دون أن يمس الفاتحون الأرض أو يأخذوها عنوة وقهرا . وأما الأرض

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) Grohmann : Arapci Papyri vol. III. p. 177.

التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة ، وتقسم بين الفاتحين طبقا للآية الكريمة (واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (١) ويفسر الفقهاء المسلمون ذلك بأن الخمس الذى لله عز وجل مردرد من الله تعالى على الذين سمى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ويوزع الرسول أو الامام ذلك بين من يحضر من هؤلاء بعد أن يجتهد ويتحرى العدل أما الأربعة الأخماس فيقسمها الامام بين المسلمين الغانمين الفاتحين .

وقد أبقى العرب أرض مصر على حالها وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا بالرغم من فتحهم لمصر عنوة كما ذكرت ، وهذا مما يجيزه الفقهاء للفاتحين . ولا ريب فى أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهى عدم تقسيم الأراضى بين الفاتحين ، ولا سيما أنه لم يفعل ذلك فى مصر وحدها بل فى العراق والشام ، فانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضى بينما الجهاد يناديهم فى كل مكان ، كما أن العرب فى جملتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالى البلاد المفتوحة حتى يعاونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا أعلم بزراعتهم وريهم . ولا بد أن الخليفة عمر كان يسترضى جنده ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والغنائم الأخرى غير الأرض .

وكان الخراج فى مصر يجبى نقدا وعينا وتعرف الضريبة العينية باسم ضريبة الطعام ، وكان القمح أهم ما يجبى من ضريبة الطعام ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحيانا غير الغلال ، الزيت

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١ .

والعسل وأنواع الطعام الأخرى ، وكان يصرف من المال الذى يجبى عطاء الجند المرابط فى مصر كما أن أرزاق الجند فى مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام ٠

وكان الخراج فى مصر يجبى على أساس مساحة الأرض التى يملكها الشخص كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين ، كما أنه كان يراعى فى تقدير تلك الضريبة حالة فيضان النيل فى كل عام لارتباطه بالزراعة ، وكمية المحصول التى تنتجها الأرض ٠

ونلاحظ أن الضرائب التى ترسل الى الخلافة كانت عينا ونقدا أيضا ٠ وعقب الفتح مباشرة بدأت مصر ترسل القمح الى المدينة المنورة عاصمة الخلافة الاسلامية كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطة ٠ وقد كانت الغلال ترسل أولا الى المدينة بوصفها مقر الخلافة ولكن ارسالها لم يبطل الى يومنا هذا ـ اذا استثنينا فترات معينة ـ بالرغم من أنه حل محل المدينة عواصم أخرى للخلافة وبالرغم من التغيرات السياسية التى حدثت في مصر وفى الخلافة نفسها ٠

ولدينا بعض النصوص التى تشير الى مقدار ما كان يرسل نقدا الى بيت الخلافة ٠ فيقال : انه فى زمن معاوية أرسل واليه على مصر مسلمة بن مخلد (٤٧ ـ ٦٢ هـ) ستمائة ألف دينار (١) الى بيت المال بعد أن دفع عطاء الجند وأنفق على البلاد ما تحتاج اليه وبعد ارسال القمح الى الحجاز ٠

ويذكر ساويرس (٢) ، المؤرخ المصرى القبطى ، أن ما كان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٠٢ ٠

(٢) سير الآباء البطاركة (Patr. Orient. T.V.) ص ٨٩؛

يحمل الى بيت المال مائتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما تحتاج اليه البلاد ·

ونلاحظ أنه وجدت فى مصر منذ الفتح العربى أراض امتلكتها حكومة العرب ، اذ كان هنالك قبل الفتح أراض يمتلكها الأباطرة امتلاكا خاصا غير تلك الأراضى التى كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء أكانوا من الروم أم من المصريين فهذه الأراضى التى كانت ملكا خاصا للأباطرة أو التى هرب أهلها أو ماتوا زمن الفتح آلت الى الخليفة وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين · وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضياع التى استولت عليها طريقة الاقطاع ، وكان أقدم اقطاع فى مصر ذلك الذى أقطعه عمر بن الخطاب للصحابى ابن سندر فى مكان عرف باسم منية الأصبغ وموقعه الآن شمالى القاهرة قرب ضاحية الدمرداش الحالية ·

وقد زادت الضياع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف اليها من الموات (١) أو الأرض المهجورة أثناء الحكم العربى ·

ونلاحظ أن اقطاع الأرض بدأ فى عصر الولاة فى مصر ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الاقطاع فى الغرب ، لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الاقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه ، رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الاقطاع الاسلامى فى مصر الا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضى للاقامة فيها وزراعتها وبغير أن يكون لهم حق الوراثة فى الانتفاع بها ·

---

(١) الموات بعكس العامر من الارض اى الأرض التى تحتاج الى تعمير واصلاح ·

وكان يدفع عن الأرض التى امتلكها المسلمون بعد الفتح العربى العشر زكاة لها كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى • ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الاسلام تصبح أرضه عشرية ولا شك أن هذه النظرية طبقت بعض الوقت ثم رأت الحكومة أن فى هذا جل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلا بالأرض نفسها وأصبح القبطى اذا اعتنق الاسلام لا تعفى أرضه من الخراج • والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين الى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الاسلامى وما الى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها • والواقع أن نظام الأرض فى مصر بعد الفتح العربى وما عليها من ضرائب عشرية أو خراجية كان نظاما مطاطا مرنا ولم يستقر الا بعد مدة طويلة • والمعروف أن الأرض فى مصر فى عصر الولاة أصبح يفرض عليها الخراج بمضى الوقت سواء أسلم مالكها أو كانت ملكا لأحد المسلمين • ونعرف أن الأقباط والمسلمين على السواء ثاروا فى العهد العباسى فى عصر الولاة من أجل زيادة الخراج زيادة أجحفت بهم •

ضرائب الصناعة والتجارة :

فرض العرب بعد الفتح ضرائب على الصناع والعمال وكانت تقدر بقدر احتمالهم • وكذلك فرض العرب على التجار فى مصر أى على التجارة الداخلية ضرائب عرفت بالمكوس (١) وكان مقر ادارة

---

(١) المكس فى اللغة الجباية يقال مكسه يمكسه مكسا • ويقال للماكس او صاحب المكس العشار أو العاشر ، وعشر القوم معناه أخذ عشر اموالهم والعشار هو قابض العشر •

هذه الضرائب فى الجهة التى عرفت باسم المقس ، وهى قرية أم دنين التى كانت تقع شمال الفسطاط وانما سميت المقس لأن صاحب المكس كان مقره هناك فقيل المكس وقلب فقيل المقس ٠

كذلك فرض العرب ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورها أو التى ترد اليها أو تصدر منها فكانت المكوس تجبى من التجارة فى الثغور المصرية وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية ٠ وقد قرب المسلمون ضرائب التجارة من نظام الزكاة أو العشور ٠

الضرائب الأخرى :

كانت حكومة العرب تفرض ضرائب أخرى غير عادية تبعا لازدياد مصروفات الدولة عن ايراداتها وقد ورد ذكر مثل تلك الضرائب فى الأوراق البردية التى ترجع الى عهد الأمويين فى مصر ٠

كذلك لجأ العباسيون الى فرض مثل تلك الضرائب التى زادت زيادة كبيرة فى عهدهم ، ففرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب وغير ذلك ٠ وزادت الضرائب غير العادية زيادة فاحشة منذ أن ولى أحمد بن محمد بن المدبر خراج مصر فى سنة ٢٤٧ هـ ففرض ضريبة على الكلأ الذى ترعاه البهائم سماها المراعى ، وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها المصايد وذلك بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ ٠ كذلك حجر ابن المدبر على النطرون بعد ما كان مباحا لجميع الناس ٠ وانقسمت ضرائب مصر منذ مجىء ابن المدبر الى ضرائب خراجية وهى التى تجبى سنويا ، وضرائب هلالية وهى التى تجبى شهريا ؛ وعرفت الضرائب الهلالية باسم المرافق والمعادن ٠

وجدت أنواع من الضرائب فى العهد العربى يمكننا أن نسميها الالتزامات ، وهذا النوع وجد قبل الفتح العربى · وعرف نظام الالتزامات فى العالم القديم باسم الليتورجيا Leiturgia ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة · ففى أثينا فى بلاد اليونان كان كل مواطن يمتلك نصيبا معينا من الأملاك يقدم الى الدولة بعض الخدمات الشخصية (١) · ولكن هذا النظام لم يكن فى العصر الاسلامى عاما كما كان عند الاغريق القدماء ، بمعنى أنه كان ظاهرا فى الضرائب وما يتصل بها ، فكانت الكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ فى مقابل اعفائها من ذلك · وفى بعض الأحيان كان الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبعدم قبول المال مقابل الاعفاء من أدائها ·

ومن أهم أنواع الالتزام أو الليتورجيا فى عصر الولاة :

١ ـ تقديم العمال والأدوات اللازمة لتشييد الطرق وحفر الترع أو كريها ·

٢ ـ تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشتهر بانتاجه الكورات ·

٣ ـ ايواء الجند وضيافتهم ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين

---

(١) كانت هذه الخدمات كثيرة النفقات وكانت فى البداية نتيجة طبيعية للامتيازات السياسية التى ينعم بها الأثرياء فكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أثقل من نصيب الفقراء · ولكن لما ازدهرت الديمقراطية فى أثينا واصبح المواطنون متساوين فى الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الامتيازات ، وصارت نوعا من ضرائب الدخل ·

وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام ، ولعل السبب الذى حدا بالعرب الى ذلك هو أنهم فى أول عهدهم بمصر كانوا جنودا ، وكانت اقامتهم قاصرة على العاصمة التى بنوها لأنفسهم ، أو فى الثغور لحمايتها ضد الأعداء • وقد أخذ العرب واجب الضيافة هذا من الرومان والبيزنطيين فى مصر •

٤ ـ من الالتزامات أيضا تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية •

٥ ـ تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشييد المبانى العامة فى مصر ، بل ولعمارة المساجد فى الشام وبلاد الحجاز •

٦ ـ تقديم البحارة ومواد بناء السفن •

ونلاحظ على وجه الاجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذا الى حد كبير من النظام البيزنطى ، ولم يكن أخف منه وطأة الا أنه كان يمتاز بتبسيطه بعض الشىء ، فقد أبطل العرب وخاصة فى أول عهدهم بالفتح بعض الضرائب التافهة التى استحدثها البيزنطيون ، الا أن النظام المالى فى مجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطى • وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة فى عهد أصحاب اقطاع مصر من الأتراك كما يتبين من أوراق البردى •

نظام جباية الضرائب :

كان حاكم مصر فى العهد البيزنطى يقدر الضرائب على أساس المعلومات التى يقدمها اليه الحكام المحليون ، وقد أتبع العرب بعد فتحهم لمصر النظام نفسه ، فكان كل صاحب كورة يتصل بالوالى أو عامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، وكان يشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت اشراف صاحب الكورة •

ولدينا ورقة بردية خاصة بجباية الضرائب فى عصر الولاة زمن الأمويين ، نرى فيها والى مصر قرة بن شريك يرسل الى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم • وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت اشراف صاحب الكورة ، يطلب منه أن يرسل اليه نتيجة عملهم بعد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب منه أيضا أن يكتب أسماء وألقاب ومحل اقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب ، وينذره بأنه اذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضا أشد عقاب •

وقد وجد فى مصر فى العصر العباسى نظام آخر لجباية الضرائب عرف باسم « قبالات الأراضى » ومعناه أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة لمنطقة معينة أو يلتزم بتنفيذها وكان مثل هذا النظام موجودا فى العهد البيزنطى •

وكان عامل الخراج فى عصر الـولاة زمن العباسيين ، يعقد مزادا فى جامع عمرو بن العاص لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتعادل سنون المحصول الضعيف بسنين المحصول الطيب) وكان المتقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفعـه ما ينفقه فى كرى الترع وعمـارة الجسور وحفر القنوات وما تتطلبه الأراضى الزراعية من أعمال واصلاح • ولدينا نص من المقريزى (١) عن هذا النظام فيقول :

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨٢ •

وكان من خبر أراضى مصر ـ بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا . وانقياد جمهور القبط الى اظهار الاسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ـ أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو ابن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متـــولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستجارة وغير ذلك ، فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبــل أرضا وضمنها الى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها ، بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك . ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأرض ما ينفقه على عمارة جسورها وسعة ترعها وحفر خلجهـــا بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين ، يقال لما تأخر من مال الخراج البواقى . وكان الولاة يتشددون فى طلب ذلك مرة ويسامحون به مرة ، فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة (١) وراكوا(٢) البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من

---

(١) تحويل السنة معناه تحويل السنين القمرية الى شمسية فاذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكاننا نجمع الخراج فى مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثة وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الأشياء وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قمرية اى يحذف كل ٣٣ سنة قمرية خراج سنة وهذا ما يسمى التحويل (خطط المقريزى ج ١ ص ٧٣ ، De Sacy : Sur la nature et les revolutions ... p. 200.

(٢) الفعل راك والفعل روك . معناه تقويم الأراضى ومسحها : De Sacy : op cit., p. 200.

غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج الى التنقيص فيها ، ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص الى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار العسكر (١) منزلا لأمراء مصر فنقل الديوان الى جامع أحمد بن طولون » ٠

وقد ظهرت فى العصر العباسى أيضا مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله فكان الخليفة يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله ٠ وهناك فرق واضح بين من يلى خراج مصر وبين من يضمن خراجها ، فكان يبعد أن يرفض أى شخص ولاية خراج مصر ولكن من المعقول أن يرفض ضمان خراجها وذلك خشية العجز عن القيام بما التزم به نظرا لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان أو لاحتياجه الى المال للنفقة على الادارة وعلى الجند ٠

ديوان الخراج والأموال :

كان فى مصر فى عصر الولاة ديوان للخراج والأموال ٠ ويظهر أن بيت المال فى مصر لم يكن وقفا على حفظ أموال الضرائب فحسب . فانا نعلم أن الخليفة أبا جعفر المنصور أرسل الى أبى عون والى مصر (١٣٣ ـ ١٣٦هـ) يأمره بادخال أموال اليتامى فى بيت المال ، وربما كان يرد الى بيت المال أيضا المواريث التى يموت أصحابها دون أن يكون لهم ورثة ٠ ولعل خمس الغنيمة التى كان يغنمها المصريون فى فتوحاتهم فى الغرب والجنوب كانت ترد الى بيت المال أيضا ٠

وكان يشرف على كل فرع من فروع ديوان الخراج والأموال فى الأقاليم موظف يسمى الجسطال ٠

---

(١) فى الواقع كانت القطائع هى مقر امراء الدولة الطولونية منذ أن بناها أحمد بن طولون لا العسكر ٠

أما الضرائب العينية المكونة من الحبـــوب فكانت ترسل الى أمراء العاصمة ٠

النقود الاسلامية فى مصر :

كانت الجزية والضرائب المختلفة وايجار الأراضى وأجوز العمال وعطاء الجند وسائر المعاملات فى عصر الولاة تدفع بالدنانير الذهبية وأقسامها ٠ ولم يكن هذا جديدا فى مصر الاسلامية ، بل كان أساس التعامل قبل الفتح العربى هو العملة الذهبية ٠ وقد وجدت عمـلة مساعدة الى جانب الذهب وهى الدراهم الفضية كما كان هناك نقود صغيرة - كالقروش وكسورها الآن - من العملة البرنزية ٠

والمعروف أن العرب قبل الفتوحات كانوا يتعاملون بالدراهم الفضية الفارسية والدنانير البيزنطيـة الذهبية ، وظلوا يتعاملون بالنقود الأجنبية بعد أن تغلبوا على البـلاد المختلفة ٠ الا أن عمر بن الخطاب ضرب بعض الدراهم على شكل الفارسية ، ونقش عليها عبارات اسلامية مثل « الحمد لله » و « الله أكبر » و « لا اله الا الله وحده » و « محمد رسول الله » ٠

وكذلك فعل الخليفة عثمان بن عفان اذ ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » ٠

ونعرف أن معاوية بن أبى سفيان سك دراهم ودنانير ٠ وكذلك ضرب عبد الله بن الزبير الدراهم فى مكة حين دعا لنفسه بالخلافة ، وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وقد تأثرت مصر بما يجرى فى الخلافة فكان يتعامل فيها بالنقود الاسلامية جنبا الى جنب مع النقود التى كانت موجودة قبل الفتح ٠

ولم تثبت النقود الاسلامية على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان الى أن ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ - ٨٦ هـ)

وتمهدت له الأمور فى الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه فأراد أن يصلح النقود ويوحدها فى جميع المملكة الاسلامية وأن يستغنى عن النقود الأجنبية ، وقد تم لعبد الملك ما اراد فى سنة ٦٧ هـ وأرسل الى الأمصار الاسلامية كلها ومن بينها مصر لتضرب نقودها بمقتضى السكة التى ضربت فى دمشق مقر الخلافة ٠ وكانت هذه الخطوة مظهرا هاما من مظاهر استكمال السيادة العربية حتى ان مؤرخى الاسلام ذكروا أن عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود فى الاسلام مع أنه وجدت نقود اسلامية قبل عبد الملك . ولكن الخليفة الأموى كان أول من نظم سك النقود وجعلها وزنا واحدا وجعلها تسرى فى جميع أنحاء المملكة الاسلامية كما استغنى عن النقود الأجنبية ٠

وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحيانا يغيرون فى أوزانها ، ولما زالت الخلافة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ صار الخلفاء العباسيون يضربون سككا أيضا ٠ وظلت السكة فى مصر خاضعة للسكة الاسلامية الى أن استقلت مصر عن الخلافة فبدأ يظهر فى الأفق سكة اسلامية مصرية خاصة بمصر ٠

٣ ـ النظام الحربى

(أ) الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش احتلال عربى ، ولم يشرك العرب المصريين فى هذا الجيش ، ولم يرد فى صلح بابليون أية اشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجندية ٠ وربما دعا العرب الى انتهاج تلك السياسة خوفهم من أن يحيى المصريون روح القومية على حسابهم وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة فرأوا أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية والا يتركوا لهم الا الأعمال المدنية ، وربما كان العرب يشكون فى كفاءة المصريين الحربية اذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعبا يتقد حماسة وشجاعة ٠

وكان فى مصر ديوان للجند تدون فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم ٠ وكان عمرو بن العاص هو أول من دون ديوان الجند فى مصر فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب ٠

وكان الجند يثبتون فى الديوان على حسب قبائلهم التى ينتمون اليها • ونلاحظ هذا التقسيم فى الجيش الذى فتح مصر ، اذ كان مقسما على حسب القبائل • كذلك روعى هذا التقسيم فى مدينه الفسطاط التى اختطها العرب ؛ اذ اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى •

وكان الجند فى مصر عربا حتى نهاية الدولة الأموية • أما فى زمن الدولة العباسية فقد جدت عناصر فارسية دونت فى الديوان مع العرب ثم ما لبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصر العربى والفارسى وقوام هذا العنصر الجديد الجند الأتراك الذين استكثر منهم الخليفة المعتصم وأثبتهم فى الديوان • بل ان المعتصم أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم فى سنة ٢١٨ هـ ونفذ كيدر هذا الأمر ، وكان من أثر ذلك أن انتشر العرب فى أنحاء مصر يسعون وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التى كانت الى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد •

وقد عرفنا من أوراق البردى التى وصلت الينا أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراتهم ، أو يطلب من أصحاب الكور ارسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان •

ولسنا نعرف تماما المبادىء التى كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند ، وهل كان ينظر الى القبيلة وسابقتها فى الاسلام وفضلها فى الجهاد أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية • ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد

فى أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعا لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضعف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه ٠

وكان يراعى فى تقدير العطاء أن يغنى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب ٠ ومهما يكن فقد كان من الواجب أن يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه : أولا ـ عدد من يعوله الفرد وثانيا ـ عدد ما عنده من الخيل وثالثا ـ مستوى المكان الذى يعيش فيه ، وهل يسود المكان الغلاء أو الرخص ٠

أما اذا مات أحد أفراد ديوان الجند أو قتل فالظاهر أن عطاءه كان يصبح ارثا من بعده يأخذه ورثته ، وذلك تشجيعا للجنود على التجنيد ٠ وفى بعض الأحيان كان ورثته يحالون على مال العشر والصدقة باعتبار أن العطاء يسقط بموت صاحبه ٠

ولم يستمر تقدير العطاء على حال واحدة فبعض الخلفاء كانوا يزيدونه والبعض الآخر كانوا ينقصونه ٠ على أن انقاص العطاء والأرزاق كثيرا ما كان يثير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد العرب المقيمين فى مصر خصوصا فى أواخر الدولة الأموية وفى خلال الدولة العباسية عندما أصبح العرب يملكون أراضى زراعية ، اذ أصبحوا يؤدون خراجا وفى الوقت نفسه يأخذون عطاء ، وانقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء المالية على العرب ، وكان هذا سببا فى ثوراتهم بمصر ٠

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما الى ذلك من الرتب التى لم نتبين تماما الفرق بين كل منها والآخر فى فجر الاسلام ، ومن المحتمل أن

العرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقهـا على الجند · ويظهر أنه كان هنـاك وقت معين يعـرفه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاءهم على رأس كل سنة · ويقال ان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قطع العطاء عن جند مصر سنة نكتب اليهم كتابا يعتذر فيه فى السنة التالية ويقول : « انى انما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو خضرنى فاحتجت فيه الى المـال ، وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطـاء هذه السنة فكلوا هنيئا مريئا وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطـاء على يديه » (١) ·

وقد سبق أن ذكرت أنه اشترط على المصريين ضيافة الأجناد فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام ، وهذا كان يوفر على الجند كثيرا من العناء عند انتقالهم من جهة الى أخرى فى أنحاء مصر ·

ونلاحظ أن التجنيد كان تطوعا فى البداية ، ثم دخله نوع من الالزام فى عصر بنى أمية ·

وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع والزام كانت تتغير بين حين وآخر بتغير الأمراء واختلاف ظروف القتال ، وقوة الخـلافة نفسها ، ونوع العناصر التى كانت تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الاسلامية ·

وكان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة وربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها · وهذا لايخالف ما ذكرناه من أن العرب أبعدوا المصريين عن الاشتراك

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ·

فى الجيش ، اذ أن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ولم يشتركوا اشتراكا فعليا فيه ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش ، وفى أوقات الضرورة القصوى ، كما كان عملهم مقصورا على مصر وحدها ٠ ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا فى الديوان ، انما كان عطاؤهم من الصدقات ٠

وكان الخلفاء يهتمون اهتماما خاصا بحامية مصر اذ أن موقع مصر يتطلب السهر دائما على شئونها والعناية بالجيش الذى يحميها ، فمصر تقع فى منطقة يسهل منها التوسع جنوبا وغربا وشرقا بل وشمالا عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أى أنها قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما اذا تطرق اليها الضعف فان العدو يهددها من هذه الجهات ٠

وقد روى أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر : «واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » (١) ٠

ولابد أن حامية مصر قد زادت بعد الفتح زيادة كبيرة اذ تذكر المصادر أن حامية الاسكندرية أو رباطها كان اثنى عشر ألفا بين سنتى ٤٣ و ٤٤ هجرية ولكن قائد هذا الرباط كتب الى عتبة بن أبى سفيان والى مصر آنذاك يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم (٢) ٠ ونحن نستطيع أن نلمس هذه

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٦ ٠

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٦ ٠

الزيادة الكبيرة اذا تذكرنا أن الجيش الذى قدم الى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاما كان كله يتراوح بين ١٢ ألفا و ١٥ ألفا من الجنود ٠

وقد ظلت مصر طوال عصر الولاة قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها جيوش الخلافة جنوبا وغربا ، اما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح برقة ، واما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوسع غربا ٠

(ب) البحرية

اشتهرت مصر منذ البداية بصناعة السفن التى كان يحتاج اليها أسطول الخلافة ، والمعروف أن العرب عند ظهور الاسلام لم يكونوا شعبا بحريا ولكن عندما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية ، وعندما اضطروا الى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر فى البحار ، بدءوا يشعرون بحاجتهم الماسة الى أسطول يكون عونا لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطانهم وغزو الروم فى عقر دارهم ٠ وكان طبيعيا أن يستخدم العرب فى بناء أسطولهم وفى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى فتحوها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم ٠ وقد أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ، ومن العمال المصريين أيما الفادة وأصبحت مصر عقب الفتح مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين ٠ والمعروف أن المسلمين بدءوا يغزون فى البحر ويعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ــ ٣٥هـ) وقد كان عمر بن الخطاب يخشى على المسلمين من غزو البحار ،

ونعرف أن العلاء بن الحضرمى ندب أهل البحرين حين كان أميرا عليها الى غزو فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين ، وغضب عمر بن الخطاب على العلاء وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه · ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبى سفيان ــ وكان أميرا حينذاك على جند دمشق والأردن ــ على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر معللا ذلك بقرب الروم من حمص ، ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك لأنه خشى على المسلمين من ركوب البحر وقال فى ذلك : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » ·

لكن الدولة العربية سرعان ما غيرت سياستها هذه ورأت ضرورة انشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر وذلك فى خلافة عثمان بن عفان ، اذ وافق الخليفة على القتال فى البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعا لايحمل عليه أحد · وقد ساهمت مصر بنصيب وافر فى انشاء الأساطيل الاسلامية الأولى ، ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمرو بن العاص فى حكم مصر كان أمير البحر الثانى فى الاسلام · أما أمير البحر الأول فكان معاوية بن أبى سفيان أثناء ولايته على الشام وقبل أن تصير له الخلافة · فكان المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد · وقد قدم أسطول لغزو الاسكندرية فى سنة ٣٤ هـ بقيادة الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى ابن هرقل ، وكان والى مصر حينذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان ، فخرج الأسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد لصد الروم ، وكان معاوية واليا على الشام حينذاك فأرسل أسطولا تحت امرة بسر بن أبى أرطاة اشترك مع الأسطول المصرى فى صد الروم ،

وقد أسفرت هذه المعركة عن أول انتصار بحرى عظيم للعرب ضد البيزنطيين فى سنة ٦٥٥ م ــ ٣٤ هـ · وقد سميت هذه المعركة باسم « ذى الصوارى » وذلك لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال · وفى هذه المعركة ربط العرب السفن العربية الى السفن البيزنطية وقلبوا قتال البحر الى قتال بر · وقد وصف المؤرخ الاغريقى ثيوفانس Theobhanes هذه المعركة بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم · أما الطبرى فقال ان الدم كان غالبا على الماء فى هذه المعركة ، وان الأمواج طرحت جثث القتلى ركاما · وتسمى موقعة ذى الصوارى أيضا باسم موقعة فينكس Phoenix ويرجع معظم المستشرقين أن هذه الموقعة البحرية حدثت على ساحل ليسيا Lycia جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر فينكس (فنكى اليوم) · وربما قد تكون حدثت بالقرب من ثغر فونيكة Phoenicus غربى الاسكندرية ·

وكانت صناعة السفن الحربية مزدهرة فى وادى النيل · وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية · وكانت « الصناعة » موجودة فى جزيرة الروضة وفى القلزم (السويس الحالية) وفى الاسكندرية · ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الأسطول المصرى بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية ·

وتشهد الأوراق البردية التى ترجع الى العصر الأموى فى مصر أن الولاة كانوا يطلبون عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى ، وكان الولاة يتفقون مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول ، وكذلك كان يفرض على الكور قدر من الأدوات والآلات

المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها · كما كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى اعداد الأسطول · وقد ذكرت قبل ذلك أن هذه الحقوق التى كانت للحكومة على الهيئات أو الأفراد من آثار الليتورجيا أو الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القـديم ·

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر طوال عصر الولاة · والمعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط ، وظل كذلك الى خلافة معاوية بن أبى سفيان حين أمر بانشاء دار للصناعة فى عكا · واذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع الى الشعوب التى فتحوها والتى تعلمـوا منهـــا هذا الفن والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بـأن الفضل الأكبر والأول يرجع الى مصر والمصريين ·

٤ ـ النظام القضائي

أدخل العرب فى مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يدخلون فى الدين الاسلامي من أهل البلاد • أما الذميون فكان لهم قضاؤهم الا اذا احتكموا الى القاضى المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل •

وكان القضاء فى الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة فكان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر وكان الخلفـــاء هم الذين يعينون القضاة فى مصر فى عصر الولاة ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه •

وكان القضاة فى مصر أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة ، وهذا طبعا مما يستدعيه حسن سير العدالة ؛ ففى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين ، وكثيرا ما مات القضاة فى مصر وهم فى مناصبهم •

وتشهد النوادر المختلفة للقضـــاة فى ذلك العصر أن معظمهم كان يتسم بالعدل والنزاهـــة والشـــدة فى الحق ولا يخشى لومـــة

لائم . ووجد أيضا أقلية من القضاة كانوا بعيدين عن النزاهة ، كما جمع بعضهم من الرشوة مالا كثيرا .

ولم يكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا ، انما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وكانت سلطة القاضى تمتد الى الأراضى التى كانت تدخل تحت سلطة الوالى السياسية . كما أن الاختصاص النوعى للقاضى كان غير محدود سواء أكان فى الأمور المدنية أم الجنائية .

وكان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الاسلامى وهى القرآن والسنة والاجماع ، والاجتهاد أو القياس .

وفى زمن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) كان بعض القضاة يرجع أحيانا الى الخليفة فى بعض المسائل الدقيقة ، ولعل ذلك لمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه فى الدين ، وخوف القاضى من الانفراد بالرأى فى مسألة ربما يخطىء فيها باجتهاده وحده ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه فى حلها استئناسا برأيه وضمانا للعدالة .

وكان الخلفاء فى عصر الولاة يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر اذا ما انتابهم ظلم أحد القضاة ، وكانوا يتدخلون فى أحكام أمثال هؤلاء القضاة ، فقد صرف الخليفة هشام بن عبد الملك أحد القضاة لعدم انصافه يتيما تظلم اليه بعد بلوغه (١) ، كذلك نعلم أن الخليفة الأمين فسخ حكم احدى القضايا حين تبين أن حكم القاضى فيها لم يكن منزها عن الغرض (٢) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

وقد انتشرت بمصر فى العصر العبـاسى المذاهب الأربعـة المعروفة اليوم ، على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدرون أحكامهم وفقا له ٠

وكان القضاة يأخذون رزقا أو مرتبا من بيت المال ، وكان هذا الرزق بسيطا فى أول عصر الولاة ثم أخذ يرتفع تدريجيا ، فبعد أن كان رزق القاضى حتى قرب نهاية القرن الأول الهجرى حوالى مائتى دينار فى السنة أصبح فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى عشرين دينارا فى الشهر ثم صار فى بداية النصف الثانى من هذا القرن حوالى ثلاثين دينارا فى الشهر ، وفى نهاية القرن الثانى الهجرى وصل رزق القاضى الى مائة وثمانية وستين دينارا فى كل شهر (١) ٠

وقد بدأ النظام القضائى فى مصر فى عصر الولاة بسيطا ثم ارتقى وتطور تدريجيا ، فلم تكن أحكام القضـاة تدون فى بادىء الأمر ، ثم بدأ القضاة فى تدوينها على أثر حكم أنكره المتخاصمون ٠ كذلك لم يكن للقاضى فى بادىء الأمر شىء تصان فيه كتبه وأوراقه بـل كان كاتب القاضى يحضر ومعه الكتب فى منـديل ، ثم اتخذ القضاة قمطرا يحفظون فيه أوراقهم ، وكان القضاة يختمون الأوراق قبل ايداعها القمطر ٠

وقد عنى القضاة عناية كبيرة بالسؤال عن الشهود والتحقق من استقامتهم ونزاهتهم ، وكان صاحب المسائل يجدد السؤال عن الشهود فى كل ستة أشهر ٠

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٠٧ و ٣٥٤ و ٣٦٩ و ص ٤٢١ ٠

ومن التقاليد التى نشأت فى هذه الفترة أيضا خروج القاضى فى نفر من أهل الصلاح لرؤية هلال رمضان وكانوا يخرجون لرؤيته فى الجيزة ٠

ونلاحظ أن انشاء ديوان الأحباس أو الأوقاف يرجع الى هذا العهد منذ سنة ١١٨ هـ ، وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه ، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمى (١١٥ ـ ١٢٠ هـ) ٠ وكانت الأحباس قبل ذلك فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم ٠

الباب الثانى

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى قامت فى مقر الخلافة

الحركات السياسية والدينية فى مقر الخلافة

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذى يتولاها ، وهل هى ارث فى بيت النبى وفى فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية ، أم يتقلد أمرها أى فرد كفء لها ، بغض النظر عن القبيلة التى ينتسب اليها . فالدين الاسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أو لغيرها من الأمم ، ولم يعهد الرسول الى شخص معين من بعده ليكون زعيما للأمة العربية يتولى الاشراف على أمورها الدنيوية والدينية ، وأقصد بالدينية هنا الاشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول فى صفته الدينية ، اذ أن النبوة أو الرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

وكان امتناع العباس عم الرسول ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة ايذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين الى سنيين

وشيعيين • ثم كثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها ، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب • ونشأت الفرق الاسلامية المختلفة وتشعبت تلك الفرق وكان لكل فرقة ولكل نحلة أنصارها ، اما ايمانا بعقائدها وبمبادئها واما كرها فى الخلافة القائمة ، واما رغبة فى منفعة أو مصلحة مادية ؛ كبث بعض تعاليم الديانات والمذاهب القديمة وصوغها فى قالب اسلامى رغبة فى الاساءة الى الدين الاسلامى أو رغبة فى احياء وبعث القوميات والأديان القديمة التى تغلب عليها الاسلام •

ونلاحظ أن الحركات والثورات المختلفة التى انبعثت فى الدولة الاسلامية كانت سياسية فى شكل دينى ، أو دينية فى شكل سياسى ؛ فالدين والسياسة كانا متصلين أشد اتصال ، بل كانا توأمين فى العصور القديمة والعصور الوسطى • وكانت النغمة الدينية تفلح فى التأثير على جمهرة الشعب حين يفشل غيرها من المؤثرات والمحركات ، ولذا اتخذ القادة الدين ستارا وقناعا لمعظم الحركات التى قامت فى الخلافة •

وقد تأثرت مصر بمعظم الحركات الكبرى التى قامت فى الخلافة فى عصر الولاة واشتركت فيها ، ولكن يجدر بنا أن نشير الى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين وانما كانوا من الجند العرب الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا اليها فى عهد الدولة العباسية • أما المصريون أنفسهم سواء أكانوا من الأقباط المسيحيين أم من الذين أسلموا فلم يشتركوا فى تلك المنازعات ، اللهم الا اذا استثنينا معاونتهم الى حد ما للعباسيين حين أسقطوا الدولة الأموية •

١ ـ الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين
ومدى اشتراك مصر فيها
(٢٠ ـ ٤٠ هـ/ ٦٤٠ ـ ٦٦٠ م)

(أ) موقف مصر من الثورة
التي قامت ضد عثمان بن عفان

لما انتخب عثمان بن عفان خليفة للمسلمين بعد مقتل عمر بن الخطاب فى آخر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) سار على سياسة سلفه فى الفتوح وتم فى عهده فتوحات وغزوات مكملة لما بدأه المسلمون فى عهد أبى بكر وما أحرزوه من انتصارات باهرة فى عهد عمرو بن الخطاب . لكن العرب اعترضتهم حواجز وعقبات فى فتوحاتهم منذ أواخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان مثل صحارى وهضبة ايران المرتفعة فى الشرق ، وهضبة الأناضول فى الشمال ، ومقاومة البربر العنيدة فى شمال افريقية الذين اعتصموا بالجبال والصحارى والبحر ، وأصبحت حروب الفتح بعد أن كانت تتقدم بسرعة أكثر صعوبة وأشد بطئا ، وبدأ القتال يتوقف وبدأت القبائل التى شغلت فترة من الزمن فى الجهاد والحرب ، بدأت تفكر فى مشاكل السلم،

وبدأت روح التذمر تظهر فى مقر الخلافة وفى الأمصار الاسلامية ٠ ولعل تلك الروح ظهرت فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب وربما كان من نتيجتها قتل الخليفة عمر بن الخطاب نفسه بيد أحد الموالى الفرس المقيمين فى المدينة المنورة ٠ لكن شدة عمر بن الخطاب وانشغال المسلمين فى الفتوحات ، وفى ضبط الأقاليم المفتوحة ، منع تبلور حركة التذمر واندلاع ثورة عامة ٠ ووجدت حركة التذمر مجالا فسيحا لها فى خلافة عثمان بن عفان بعد أن بدأت تتوقف الفتوحات الكبرى ، وشجع المتمردين لين الخليفة وتسامحه وكرهه اراقة الدماء ٠ وبدأت تسرى حركة التذمر فى الولايات الاسلامية المختلفة ضد الخليفة ولما تمض ست سنوات على حكمه ، وترأس هذه الحركة رجل يهودى فارسى الثقافة يمنى النشأة من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفان واسمه عبد الله بن سبأ وكان يعرف بابن السوداء لسواد أمه ٠ ويظهر أن عبد الله بن سبأ هذا كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الاسلام وليكيدوا لهذا الدين ، فتنقل فى البلاد الاسلامية يحاول ضلالتهم كما يذكر المؤرخون ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكنه لم ينجح فى الحجاز أو الشام كما أنه طرد من البصرة والكوفة ، فجاء الى مصر ووجد الحالة مواتية فيها لنشر تعاليمه ودعايته ولاعلان الثورة ضد الخليفة ، ذلك أن والى مصر حينذاك وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان مشغولا بالحروب الخارجية ، اذ غزا افريقية فى سنة ٢٧ هـ ، وغزا النوبة وعقد مع ملكها هدنة فى سنة ٣١ هـ ، كما حارب الروم فى موقعة ذى الصوارى سنة ٣٤هـ ، وبذلك خلا الجو لابن سبأ وللناقمين على الخلافة كى يدبروا مؤامراتهم فى مصر بعيدا عن أعين الرقباء ٠ ولم يعلم عبد الله بن سعد بأمر هذه الثورة فعلا الا سنة ٣٥ هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصوارى ٠

وكان عبد الله بن سبأ شيعيا يدعو الى أحقية على فى الخلافة ولكنه كان متطرفا مغاليا فنادى بمذهب الوصاية وهو أن لكل نبى وصيا ، وعلى بن أبى طالب وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فان عليا خاتم الأوصياء ، وذهب الى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول . وقد اعتقدت فرقة الشيعة السبئية بأن جزءا الهيا حل فى الامام على ، وقالوا كذلك بحلول الجزء الالهى فى الأئمة بعد على . كذلك نشر ابن سبأ مذهب الرجعة فأخذ يقول : انه يعجب ممن يقول : ان عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى : (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) (١) والمعروف أن مذهب الرجعة لا يقر الموت ، بل يذهب الى ان الانسان يتغيب ثم يعود ثانية . ولاشك أن الآراء المتطرفة التى دعا اليها ابن سبأ متأثرة بتعاليم النحل والديانات المختلفة التى وجدت قبل الاسلام . ولا بد أن ابن سبأ كان رجلا ذا شخصية قوية جذابة جعلته يؤثر على العامة ، بل انه استطاع بمهارته أن يجذب اليه رجالا من كبار الصحابة ومن أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان فجذب اليه أبا ذر الغفارى أحد كبار أئمة الحديث الذى كان مقيما بالشام عندما كان ابن سبأ يتنقل فى الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان ، كما جذب اليه الصحابى الكبير عمار بن ياسر الذى كان عثمان قد أوفده الى مصر للاستفسار عن حقيقة ماقيل بصدد التذمر والثورة فتنكر عمار للخليفة وبقى بمصر ولم يعد الى المدينة .

وكانت الثورة ضد عثمان بن عفان ، فى الظاهر ، دينية وشخصية فأنكر الثائرون على عثمان أمورا ، منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله وبناته بالمدينة ، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية

---

(١) سورة القصص آية ٨٥ .

على الأعمال والولايات دون غيرهم (١) ٠ كذلك قال الثوار : ان عثمان وسع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبى بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين (٢) ، وزعم الثوار أيضا فيما زعموا أن والى عثمان بالكوفة صلى بالناس الصبح أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم : ان شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم ، فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع الى اقامة الحد (٣) عليه بل أخر ذلك (٤) ٠

والواقع أن الثورة ضد عثمان بن عفان لم تكن دينية أو شخصية كما يبدو فى الظاهر وانما كان الباعث عليها ، بعد أن بدأت تتوقف الفتوحات ، عوامل مختلفة : فمن ثائر يريد بخروجه الكيد للدين الاسلامى والدولة العربية بوجه عام ، ومن طامع فى الخلافة ، ومن عود الى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة ، ومن أنفة بعض القبائل العربية من سيادة قريش ، ومن شيعى خرج مؤمنا بحق على بن أبى طالب فى الخلافة ٠ كذلك كانت الثورة على عثمان ثورة البدو الرحل ضد كل سيطرة مركزية وضد أية حكومة ٠

وساعدت الظروف فى مصر كما ذكرت على نجاح تلك الحركة ٠ ولعل عمرو بن العاص نفسه ـ وهو المعروف بدهائه العظيم ـ

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٣٦ ٠

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٨٦ ٠

(٣) حد الخمر : كل ما أسكر كثيره أو قليله من خمر أو نبيذ حرام حد شاربه سواء سكر منه أم لم يسكر ٠ وقال أبو حنيفة يحد من شرب الخمر وان لم يسكره ولا يحد من شرب النبيذ حتى يسكر ٠ والحد ان يجلد اربعين بالأيدى واطراف الثياب ويبكت بالقول العض (الشديد) والكلام الرادع للخبر المأثور فيه ٠ وقيل بل يحد بالسوط اعتبارا بسائر الحدود ٠ ويجوز أن يتجاوز الأربعين اذا لم يرتدع بها الى ثمانين جلدة ٠٠ انظر الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢١٦ ٠

(٤) ابن قتيبة : نفس المرجع ص ٣٦ ٠

كانت له يد فى اثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على خلفه عبد الله بن سعد ٠

ولما علم عبد الله بن سعد بأمر هذه الحركة خرج الى الخليفة فى المدينة وربما كان ذلك للتفاهم على خطة للقضاء على تلك الثورة ، ولكن محمدا بن أبى حذيفة خرج صراحة على الخليفة وقبض على ناصية الحكم فى مصر وطرد نائب عبد الله بن سعد ، واستطاع أن يمنع سعد بن أبى وقاص الذى أرسله الخليفة ليصلح بينه وبين الثائرين فى مصر ، من الدخول فيها كذلك استطاع أن يمنع واليها عبد الله بن سعد نفسه من دخولها حينما عاد اليها ٠ وتمادى محمد بن أبى حذيفة فأرسل حوالى ستمائة رجل مسلح الى المدينة كان من بينهم محمد بن أبى بكر الصديق وتظاهرت هذه القوة المسلحة بأنها جاءت الى المدينة لتقديم شكواها ، ولكن ما لبث الثوار أن اقتحموا بيت الخليفة وقتلوه أفظع قتلة فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يولية سنة ٦٥٦ م) وربما أسرع الثوار الى قتله حينما علموا باستنجاده بمعاوية بن أبى سفيان أمير الشام ، وعبد الله بن عامر والى البصرة ، وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد الى عثمان خوفا من أن يقضى على حركتهم بالفشل ٠ وكان يدافع عن عثمان فى داره مائة رجل من الصحابة وهو عدد قليل بالنسبة للثائرين ويقال ان محمدا بن أبى بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله ٠

وكان مصرع عثمان بن عفان على يد جماعة من المسلمين الثائرين سابقة محزنة فى التاريخ الاسلامى أضعفت نفوذ منصب الخليفة الذى كانت تقوم عليه وحدة المسلمين وكانت بداية لتفرق كلمة العرب وبداية للفتن والمنازعات التى حفل بها التاريخ الاسلامى فى العصور الوسطى ٠

(ب) أثر النزاع بين على بن أبى طالب
ومعاوية بن أبى سفيان فى مصر

بعد مقتل عثمان بويع على بن أبى طالب فى المدينة خليفة فى سنة ٣٥ هـ ولكن خلافة على لم تحل مشكلة الخلافة ، وبدأت تظهر مشكلة جديدة فوق المشاكل التى ظهرت منذ أواخر خلافة عمر وأثناء خلافة عثمان ، ذلك أن عليا بالرغم من عدم اشتراكه فى المؤامرة التى أدت الى مصرع عثمان الا أنه كان مدينا الى حد كبير فى تسليمه زمام الخلافة الى الثوار الذين هاجموا عثمان فى المدينة . وقد ظهرت فى الحال جماعة تطالب بمعاقبة المجرمين والثأر لعثمان؛ ولم يكن فى مقدور على أن يقوم بذلك الا بعد أن تهدأ الأمور ويوافق الجميع على خلافته . وفضلا عن ذلك فقد كان هناك جماعة لايحبون عثمان ولكنهم لا يرغبون فى الاعتراف بالخليفة الجديد وأضاف على الى أعدائه أعداء جددا بسبب عزله ولاة عثمان وتعيين ولاة جددا ، وبدأت أول معارضة صريحة حين خرج طلحة والزبير الى مكة وانضمت اليهم السيدة عائشة أم المؤمنين زوج الرسول عليه الصلاة والسلام التى كانت بمكة حين قتل عثمان ، ومع أنهم لم يكونوا من المتحمسين لعثمان الا أنهم نادوا بالحرب وبضرورة الانتقام . وأخذ هذا الثالوث يجمع الجيوش ويثير الرأى العام ضد خلافة على وانتقلوا الى البصرة على أمل الحصول على مساعدات محلية . وازاء هذا زحف على من المدينة على رأس جيشه فى جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ (أكتوبر سنة ٦٥٧م) وتوجه الى الكوفة بعد أن فاوض واليها ثم زحف الى البصرة وتقابل على مع قوات الحلف الثلاثى فى مكان يقال له : الخريبة فى ظاهر البصرة وهناك انتصر على ، وقتل طلحة والزبير وأسرت السيدة عائشة فى الموقعة التى عرفت فى التاريخ

باسم « موقعة الجمل » لأن القتال دار حول الجمـل الذى كانت تركبه عائشة أم المؤمنين • وقد أعيدت عائشة مكرمة الى مكة • وظل على فى البصرة لفترة بسـيطة ثم عاد الى الكوفة واتخذها حاضرة له •

ونلاحظ أن خروج على لمقاتلة طلحة والزبير وعائشة يعتبر المرة الأولى التى يخرج فيها خليفة على رأس جيش اسلامى فى حرب أهلية ضد اخوان له فى الدين ، ومن ناحية أخرى كان خروج على من المدينة نهاية للمدينة المنورة كعاصمة للخلافة الاسلامية •

ولم تنته مشاكل على بعد انتصاره فى موقعة الجمل ، ذلك أن معاوية بن أبى سفيان أمير الشام رفض بقوة واصرار التنازل عن ولايته على الشـام للوالى الجديد الذى عينه على بدلا منه • وكان معاوية حتى ذلك الحين قد وقف على الحيـاد فى النزاع بين على وخصومه ولم يطالب بالخلافة ، وانما اقتصر على مطالبة الخليفة بمحاكمة قتلة عثمان •

ونلاحظ أن مركز معاوية فى سورية كان راسخا ، اذ كانت سورية ولاية موحدة هادئة تتمتع بادارة مركزية منظمة ، وكان تحت امرته جيش قوى اكتسب خبرة وتنظيما أثناء حروبه مع البيزنطيين فضلا عن أن معاوية كان يلى دمشق وجزءا من الشام من قبل عمر بن الخطـاب ثم ثبته عثمان بن عفـان أميرا على الشام كلها • واستطاع معاوية خلال هذه المدة الطويلة أن يجذب اليه قلوب أهل الشام فأصبحوا أنصارا متحمسين له ، واستطاع معاوية أن يستميل اليه رجلا من أكبر دهاة العرب هو عمرو بن العاص • وقيل : ان عمرو بن العاص اشترط على معاوية بن أبى سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد على فقبل معاوية ذلك (١) •

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ •

وكان لامفر من اشـتباك على ومعـاوية بعد أن رفض معاوية الاذعان لأوامر الخليفة فسار على نحو الشام لمحاربة معاوية واشتبك الفريقان قرب صفين ، تلك المدينة الرومانية الخربة الواقعـة على الفرات ، وذلك فى أواخر سنة ٣٦ هـ (٦٥٧ م) وقد سبق القتال مفاوضات ، لم تكن ذات جدوى بل عملت على توسيع مسافة الخلف بين الفريقين ، وأصر معاوية على طلب تسليم قتلة عثمان ومعاقبتهم ، وحمل معاوية عليا مسئولية أدبية فى تجاوزه عن قتلة الخليفة وعدم ملاحقتهم ٠

والواقع أن معارضة معاوية تبدو ثورة على الحكومة الشرعية ، ثورة من بنى أمية ، أرسـتقراطية قريش ، للمطالبة بدم قريبهم عثمان ٠

وحين وقعت معـركة صـفين كاد أن يتم النصر لجيوش على ولأهل العراق ، لولا حيلة دبرها عمرو بن العاص ؛ اذ أشار على الجند السوريين برفع المصاحف على أسنة الرماح وأخذوا ينادون « الحكم لله » ٠ وطبيعى أن عليا أدرك أن هذا التحكيم لن يستطيع أن يتناول فى الحقيقة الا موضوع قتل عثمان والثأر له ، لأن موضوع الخلافة لن يمكن الوصول الى حله على ضوء نصوص من القرآن الكريم ٠ ولهذا لم يرحب على بالتحكيم ٠ وعلى الرغم من قوة على الظاهرة الا أن مركزه كان ضعيفا ، وذلك لعدم خضوع مناصريه له خضوعا تاما ولتضارب آراء المتدينين الذين كانوا يؤلفون قسما كبيرا من أتباعه ٠ وقد استنكر فريق القراء فى جيش على المضى فى القتال وقد دعوا الى تحكيم كتاب الله ، فتوقفوا عن القتال وتوقف معهم عدد غير قليل من جند على ٠ والقراء هم حفظة القرآن الذين كانو يعرفون قواعد الدين وروحه ويدافعون عنه ، وهكذا أجبر علي على قبول الهدنة وبذلك انتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم أى أن الفريقين المتنازعين دخلا فى دور مفاوضات ٠

وقد اتفق على أن يختار كل فريق حكما ، كما اشترط على القائدين المتنازعين أن يقبلا نتيجة التحكيم · ووقع اختيار أهل الشام على عمرو بن العاص أما أهل العراق فقد اختاروا أبا موسى الأشعرى ، وبهذه الطريقة كسب معاوية نصرا معنويا اذ أنزل على ، فى الواقع ، من مركز خليفة حاكم للمسلمين الى مطالب بالخلافة ·

وقد نجح الأمويون فى تفريق أنصار على بن أبى طالب ، اذ تسبب التحكيم فى أن ثار عليه جماعة من أتباعه ممن لم يرضوا عن هذه الخطوة ، وعرف هؤلاء باسم الخوارج أى الذين خرجوا على الجماعة · وأصبح الخوارج أشد أعداء على عليه ، ودعوى الخوارج أن عليا أخطأ فى التحكيم اذ حكم الرجل ـ والحكم لله ـ ومن هنا كان نداؤهم حين خرجوا عليه ، لا حكم الا الله » ·

وقد اجتمع الحكمان بين العراق والشام فى دومة الجندل (الجوف الحالية) وفى أذرح (فى شرقى الأردن الحالى) وكتبت صحيفة أقرها الحكمان كان فحواها أن عثمان قتل مظلوما وأن لمعاوية الحق فى أن يطالب بدمه · ثم اتفق الحكمان على خلع كل من على ومعاوية ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من أحبوا ·

وقد أعلنت نتيجة التحكيم فى أوائل سنة ٣٨ هـ (٦٤٩ م). وقيل ان أبا موسى الأشعرى تقدم وخلع عليا ومعاوية ، أما عمرو فثبت معاوية بعد أن خلع عليا (١) · والراجح أن الحكمين خلعا عليا ومعاوية وهذا يعنى أن معاوية هو الذى كسب الموقف لأن عليا خسر منصبه كخليفة وظهر بمظهر المطالب بالخلافة كزميله معاوية . أما معاوية فلم يكن خليفة بل أميرا على ولاية من ولايات الامبراطورية الاسلامية ؛ بل ان حقه فى الخلافة لم يكن قد ادعاه علانية بعد ·

---

(١) انظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٣٧ ـ ٤٠ والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨ ـ ٣٣ (ط · القاهرة) ·

ولم يقبل على نتيجة التحكيم وعادت الحالة الى ما كانت عليه قبل صفين ، بل ان مركز على تضعضع بسبب قيـــام الخوارج ولانحطاط روح أتباعه المعنوية بعدما حدث من أحداث ٠ أما أصحاب معاوية فكانوا يدا واحدة ، وقد بايع أهل الشام معاوية بالخلافة منذ سنة ٣٧ هـ وشجعه ذلك على ضم مصر ، وبذلك حرم عليا من مورد غني بالمال والامدادات ، ولنر كيف تم ذلك فى مصر ٠

تجلى النزاع بين على ومعاوية بأجلى مظـاهره فى مصر التى كانت مركزا للثائرين على عثمان بن عفـان ، فبعد مقتـل عثمان سنه ٣٥ هـ تخلف فريق من الثوار بالمدينة ، وعاد فريق آخر الى مصر ٠ لكن شيعة (١) ، عثمان بمصر بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان وانتصر معاوية بن حديج هذا على جيش محمد بن أبى حذيفة مرتين ، ولما يمض عام واحد على مقتل الخليفة ٠ ولكن هذا النصر لم يكن حاسما لأن ابن أبى حذيفة كان لايزال قابضا على السلطة فى مصر ، ومع ذلك فان انتصار شيعة عثمان شجع معاوية بن أبى سفيان على القدوم الى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها الجغرافى الممتاز ٠ وجاء معاوية بن أبى سفيان الى مصر فى نفر من أصحابه ، ووصل الى سلمنت من كورة عين شمس فى سنة ٣٦ هـ ، وبعد مفاوضات مع محمد بن أبى حذيفـة وأتباعه اتفق معاوية على أن يعطوه رهنا لكى يتفادوا محاربته لهم ، فرضى ابن أبى حذيفة بذلك ، وخرج فى الرهن مع جماعة من الذين ثاروا ضـد عثمان ، ولما بلغوا اللد بفاسطين سجنهم معاوية بها وسار هو الى دمشق ، ولكنهم هربوا من السجن فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ هـ ٠

---

(١) يقصد بكلمة شيعة عثمان الفريق الموالى لعثمان أو الطائفة التى تنتصر لعثمان ٠

. ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبى حذيفة أرسل الى مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى واليا عليها من قبله فدخلها فى أوائل سنة ٣٧ هـ ٠ وكان قيس من أصحاب المقدرة السياسية ولذا عمل معاوية وعمرو بن العاص على اخراجه من مصر بالدهاء والمكايدة ، ونجح معاوية فى أن يشكك عليا فى اخلاص قيس بن سعد عن طريق الشائعات التى روجها أنصار معاوية فى العراق ، ولهذا نرى عليا يعزل قيسا عن مصر بعد ولاية دامت حوالى أربعة أشهر ويولى عليها قائدا من كبار قواده حضر معه موقعتى الجمل وصفين هو الأشتر مالك بن الحارث النخعى ٠ وسار الأشتر الى مصر حتى نزل القلزم فى بداية رجب سنة ٣٧ هـ ، وهناك مات مسموما ، ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمرو يد فى مقتله ٠

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوى فى مصر ، ولاسيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان دون أن يكلفه ذلك حربا أو سفك دماء ٠ ولم يلجأ الى حربهم أو الى دخول مصر عنوة قبل صفين حين كان يستعد لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين على بن أبى طالب ٠

وقد رأى معاوية بعد صفين وقبل اعلان نتيجة التحكيم أن الفرصة سانحة لضم مصر اليه ليستعين بها على حرب على ، خصوصا وأن أهل الشام كانوا قد بايعوه على الخلافة ، فأرسل الى مصر جيشا فى سنة ٣٨ هـ بقيادة عمرو بن العاص ٠ وكان والى مصر بعد موت الأشتر هو محمد بن أبى بكر ٠ ولم يكن محمد بالرجل الحازم الذى يعتمد عليه وانما كان مغرورا يجهل أمور السياسة والحكم ، فكانت ولايته على مصر بداية النهاية لحكم على بن أبى طالب فى مصر ٠ ونلاحظ أن عمرا لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من شعب أجنبى كما فعل حين استخلصها من أيدى البيزنطيين ، وانما

كان يستخلصها من شيعة على بن أبى طالب • وقد تقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبى بكر بالمسناة فى شمالى الفسطاط بين عين شمس وأم دنين ، وحدثت بين الفريقين موقعة شديدة انتهت بانتصار الجند الشاميين بقيادة عمرو ودخولهم الفسطاط • وتولى معاوية بن حديج قتل محمد بن أبى بكر ، وبذلك انتهى حكم على وحكم الخلفاء الراشدين من مصر فى صفر سنة ٣٨ هـ (٦٥٩ م) وأصبحت مصر ولاية أموية منذ ذلك التاريخ بالرغم من أن عليا ظل خليفة حتى سنة ٤٠ هـ (٦٦١ م) • وتقديرا لخدمات عمرو بن العاص ولاه معاوية بن أبى سفيان مصر صلاتها وخراجها وجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على ادارتها ، وهذه هى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر • ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذى كان بين على ومعاوية كما ذكرنا سابقا •

٢ ـ الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الأمويين
(٤٠ ـ ١٣٢ هـ ، ٦٦١ ـ ٧٥٠ م)

(أ) دعوة ابن الزبير لنفسه
بالخلافة وأثر ذلك فى مصر

طمع عبد الله بن الزبير فى الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه فى موقعة الجمل ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه والدعوة الى نفسه ، بل نراه يشترك فى خدمة الدولة زمن معاوية بن أبى سفيان ، ويخرج فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ بقيادة يزيد بن معاوية . وعندما أخذ معاوية قبيل وفاته البيعة لابنه يزيد عارض فى تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير . وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير اذ قال له « ... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو وثب عليك فظفرت به فقطعه اربا اربا وأحقن دماء قومك ما استطعت » (١) .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٩٨ .

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ ــ ٦٤ هـ / ٦٨٠ ــ ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته . فأما الحسين فقد خرج على يزيد واستشهد فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ بكربلاء ، وبقتله خلا الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة فى سنة ٦١ هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز . وقد أرسل يزيد جيشا فى سنة ٦٣ هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه فى المدينة ثم مكة ، ومات يزيد ولما يتم اخضاع ابن الزبير . ثم ولى الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد الا أن مدة خلافته لم تطل فقيل انه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر ، وحدثت بعد موته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة ، وفى تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذى بايعه أهل الشام كلهم الا أهل الأردن ، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن .

ولما بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبد الله بن الزبير . أما فى الشام فقد انتصر على الضحاك بن قيس ، الذى دعا لابن الزبير فى مرج راهط وقتله ، وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان . وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى ، ومات مروان سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والعراق .

وفى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ــ ٧٠٥ م) تم القضاء على ابن الزبير ، اذ تغلب بنو أمية على العراق فى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) وعلى الحجاز فى سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير فى هذه السنة .

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨هـ وأصبح ولاتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء

الأمويين ، ولم تظهر دعوة ابن الزبير فى مصر الا عقب وفاة الخليفة يزيد وذلك فى ولاية سعيد بن يزيد عليها (٦٢ - ٦٤هـ) • وقد قام بتلك الدعـــوة الخوارج وكانوا يحســـبون ابن الزبير على مذهبهم (١) •

والواقع أن الفرق المختلفة من شيعة وخوارج كانت تؤيد الثائرين على الخلافة علها تستطيع الوصول الى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية • وقد نشيط الخوارج فى دعوتهم لما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم فى نشر دعوته • وقد أرســل ابن الزبير الى مصر واليا من قبله هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى ، فقدم مصر فى طائفة من الخوارج وغيرهم واضطر واليها سعيد بن يزيد الى اعتزال الولاية ، ومن ثم بدأت ولاية عبد الرحمن بن جحدم فى شعبان سنة ٦٤هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة لخلافة عبد الله بن الزبير • وقد بايعه الناس فى مصر ومنهم أنصــار بنى أمية الذين بايعوه فى الظاهر ، الا أنهم كانوا مخلصــين للأمويين وللحكم الأموى فى الباطن • فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه أنصاره بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير • وقدم مروان بن الحكم الى مصر وسبقه جيش بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان جاء عن طريق أيلة (العقبة الحالية) • ولم يقف ابن جحدم ، عامل ابن الزبير ، مكتوف الأيدى بل نراه يشحذ همته ويأمر بحفر خندق حول الفسطاط للدفاع عن مصر وتم حفر الخندق فى شهر واحد ، ولم ينتظر ابن جحدم حتى يأتى جيش عبد العزيز بن مروان بل نراه يرسل حملة برية الى الشام وأخرى بحرية وثالثة الى أيلة • وقد منيت حمــلات ابن جحدم الثـــلاث بالهزيمة •

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ - ٤١ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٧ •

وسار مروان الى مصر حتى نزل عين شمس ونشب القتال بينه وبين ابن جحدم الذى كان يحارب مع أتباعه من الخندق ، واشتد القتال بين الفريقين ، وأخيرا تم الصلح بين مروان وبين المصريين ، وأمن مروان المصريين ثم دخل الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥هـ ، وهكذا انتهى حكم ابن الزبير فى مصر بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهى المدة التى ولى فيها عبد الرحمن بن جحدم ٠

ولم يرض نفر من المصريين ببيعة مروان بن الحكم بعد أن كانوا قد بايعوا عبد الله بن الزبير طائعين ، فاضطر مروان الى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا نحو ثمانين رجلا ٠

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥هـ (٦٨٥م) بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية الى الحكم الأموى ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز وزوده بالنصائح الهامة ٠

وقد أسهم عبد العزيز بن مروان فى القضاء على ابن الزبير فى الحجاز فأرسل حملة بحرية الى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل ٠ وكان فى الحملة رجل اسمه عبد الرحمن بن بحنس أحد موالى تجيب يقال انه هو الذى قتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ ٠ وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة بعد أن ساهمت فيه مصر مساهمة ذات أثر لا يغفل ٠ وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة ثم خمدت حركتهم بعد تغلب مروان عليها لكنهم عادوا الى الظهور فى ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ ـ ٩٦هـ) زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولكنه استطاع أن يقضى عليهم ٠

(ب) زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك فى مصر

تجمعت الظروف والعوامل التى أدت الى زوال الخلافة الأموية ، وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى ، فهناك شيعة آل على الذين كانوا يعملون على الكيد لبنى أمية ويعتبرونهم مغتصبين للخلافة ويرون أن الخلافة واجبة على أن تنحصر فى سلالة الامام على رضى الله عنه ، وهناك الخوارج الذين اعتنقوا مبادىء هادمة لخلافة قريش فقالوا : ان الخلافة مشاع لجميع المسلمين يتولاها من كان أهلا لها سواء كان من قريش أو غيرها ، فكانوا يمثلون المبادىء الديمقراطية المتطرفة ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربى حر ، ومن الخوارج من أدخل على نظريتهم بعض التعديل فشرط الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية ولا سيما حين انضم الى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب فقالوا : ان المسلمين يختارون من بينهم الخليفة ولو كان عبدا حبشيا وبعضهم أجاز خلافة المرأة . ومن العوامل التى عجلت بزوال الخلافة الأموية أيضا ، الفرس الذين كرهوا سيادة العرب وعز عليهم ضياع سلطان الأكاسرة وفقدان استقلالهم وهؤلاء الفرس هم الذين أطلق عليهم العرب لفظ « موال » .

هذه العناصر المناوئة وجدت منذ قيام الدولة الأموية ومع ذلك لم يظهر أثرها فى اضعافها الا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها ، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموى على نفسه انقساما تاما منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦هـ/٧٤٣ ـ ٧٤٤م) الى أن ولى الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى سنة ١٢٧هـ (٧٤٤م) اذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموى يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول الى الخلافة ، مما شجع الطامعين من غير بنى أمية على القاء دلوهم فى

الدلاء علهم يصلون الى ما يريدون • وكان صاحب النصيب الأكبر فى هذه الغنيمة هم العباسيون •

كذلك وضح خطر العصبية القبلية فى أواخر عهـــد الدولة الأموية ، ومما زاد فى شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم فى هذه المنازعات فتعصب بعضهم لعرب الشمال وتعصب آخرون لعرب الجنوب •

وقد استغل بنو العباس ـ عم الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالخلافة الأموية ، ويظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينظرون من جانبهم فيما طمح اليه الشيعة ، فأخذوا يعملون لأنفسهم واستغلوا فى حركتهم الشيعة والموالى استغلالا كبيرا ، اذ كانوا يدعون للمرضى عنه من آل محمد ، وطبيعى أن آل محمد يشمل آل علي وآل العباس • وفى الوقت الذى أثمرت فيه الدعوة العباسية كانت حال الخلافة الأموية قد ساءت الى أقصى حد • وقد وجدت الدعوة العباسية فى شخصية أبى مسلم الخراسانى الفضل فى اخراجها الى حيز العمل والتنفيذ • ونجح أبو مسلم فى اظهار الدعوة العباسية ورفع راية العباسيين فى خراسان سنة ١٢٩هـ • وتمت الغلبة للعباسيين على الأمويين فى خراسان والعراق ، وسار أبو مسلم بجنده من خراسان الى الكوفة وهناك بايع أبا العباس السفاح بالخلافة فى سنة ١٣٢هـ ، وتبعه النـــاس من بعده • وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموى الذى كان يقوده الخليفة الأموى مروان بن محمد عند نهر الزاب (أحد روافد نهر دجلة) وهناك كانت الغلبة للعباسيين فى سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) وفر مروان بعد ذلك هاربا الى مصر •

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية فى مصر لأن العباسيين كما عرفنا اهتموا بخراســان والمشرق لنشر

دعوتهم فيها ولأن محور الحوادث منذ البداية كان فى المشرق . ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها فى مصر التى فر اليها الخليفة الأموى مروان بن محمد ولقي فيها حتفه .

وأول ما نسمع عن الدعوة العباسـية فى مصر أيام خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) وفى ولاية عبد الرحمن ابن خالد عليها (١١٧ ـ ١١٩هـ) (١) لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر بما كان يدور فى المشرق حتى كانت خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢ هـ) فيبدأ الاضطراب فى مصر منذ توليه الخلافة ، ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة فى كثير من الأحيان ، كما نرى النزاع بين القيسية أو عرب الشمال واليمنية أو عرب الجنوب ، يتجلى بأجلى مظاهره فى مصر . ولا غرو فقد عمت روح العصـبية القبلية اذ ذاك فى جميـع أنحاء الدولة الاسـلامية . فاليمنيون لا ينفذون أوامر الخليفة ، والقيسـيون أو المضريون فى جانب الخليفة ، ولكن بعضهم يشق عصا الطاعة ، كما يثور بعض أفراد البيت الأموى تعصبا للخليفة مروان بن محمـد ، وبعضهم يثور ضده . كذلك تظهر حركات الخوارج فى مصر ، وكان هذا صدى لحركات الخوارج فى أنحاء الدولة الاسلامية حينذاك . ونلاحظ أن الأقباط لم يشتركوا فى المنازعات الخاصة بالخلافة من قبل ولكنهم لعبوا هنا دورا لا يغفل أثره فقاموا بالثورة ضد الأمويين ، وربما دفعهم الى ذلك كثرة الضرائب التى كانت تفرض عليهم والتى زادت زيادة كبيرة فى أواخر الدولة الأموية فظنوا أن قدوم العباسـيين سيخفف من أعبائهم المالية ، ولا شك أن الدعاية للعباسيين كان لها أكبر الأثر فى حملهم على مثل هذا الاعتقاد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨ .

ولما وصلت الأخبار الى مصر بانهزام مروان بن محمد فى موقعة الزاب ، أخذ واليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، يستعد لمقاومة العباسيين ، ثم ما لبث أن قدم مروان هاربا الى مصر فى شوال سنة ١٣٢هـ فوجد أن الدعوة العباسية قد قطعت شوطا بعيدا ، وقد نجح مروان فى أن يعيد الاسكندرية والصعيد الى حوزته بعد أن كانا قد خرجا عن طاعة الأمويين ، لكن مروان لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن على بن عبد الله العباسى وأبا عون تبعاه الى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلا اليها بعده بنحو شهر . ولما اقتربت الجيوش العباسية من مدينة الفسطاط عبر مروان الى الجيزة فتبعه العباسيون ودارت هناك رحى الحرب بينهم وبين مروان وكتب النصر للعباسيين ، أما مروان ففر الى بوصير (١) وهنا لحق به صالح بن على العباسى حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ وبذلك زالت الخلافة الأموية وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من أنصار بنى أمية فى مصر . وأسر البعض الآخر ، ثم دخل صالح بن على العباسى الفسطاط فى المحرم سنة ١٣٣هـ وبعث برأس مروان بن محمد الى العراق .

وهكذا زالت الدولة الأموية بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد فى مصر وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢هـ وأوائل سنة ١٣٣هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق .

---

(١) يرجح انها ابو صير الملق الحالية التى تقع الآن فى مركز الواسطى فى مديرية بنى سويف .

٣ ـ الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية الى قيام الدولة الطولونية

(١٣٢ ـ ٢٥٤هـ)

(أ) موقف الأمويين والعلويين فى مصر من الخلافة العباسية :

لم يكن القضاء على الخلافة الأموية معناه القضـــاء على الأمويين نهائيا فقد انبعثت الدولة الأموية فى الأندلس ، أما فى مصر فقـد قامت محاولة أموية علنية ضد الخلافة العباسية فى عهد الخليفـــة العباسى المهدى (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) وكان بطل تلك المحاولة هو دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان ، الذى خرج فى الصـعيد فى ولاية ابراهيم بن صـــالح (١٦٥ ـ ١٦٧هـ) وقد استفحل أمر دحية وملك أغلب الصعيد ، ولم يفلح الوالى العباسى فى القضاء عليه فعزله الخليفة وولى مكانه واليا ثانيا ثم ثالثا ، ولم يفلح هؤلاء فى القضاء على ثورة دحية وكاد أمر دحية أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين ، اذ بايعه كثير من الناس وكاتبه البعض ودعوه الى دخول الفسطاط .

وأخيرا عين الخليفة العباسى على مصر الفضل بن صالح بن على العباسى فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ ، وكان أمامه قبل كل شىء أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره ، وقد اشتبكت قوات الوالى مع قوات النائر الأموى بضعة أشهر وانتهى الأمر بأسر دحية وجىء به الى الفسطاط ، فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه الى الخليفة الهادى ، وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ ٠ وكان القضاء على دحية الأموى معناه انتهاء أول المحاولات العلنيـــة وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة ٠ على أنهم بعد ذلك كانوا ينضمون أحيانا الى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين ، وذلك رغبة فى الكيد للدولة العباسية ٠

أما الدعوة العلوية فى مصر فقد ظهرت منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) ففى امارة حميـــد بن قحطبة (١٤٣ ـ ١٤٤هـ) قدم الى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن ابن على بن أبى طالب يدعو لأبيه وعمه ٠ وقد كان أبوه محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية قد دعا الى نفسه سرا فى خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين وفى سنة ١٤٥هـ ظهر فى الحجـــاز بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثر أنصاره فى خراسان ، واعترف الناس بامامته فى مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه ابراهيم الى البصرة لنشر دعوته ٠ على أن محمدا كان مصيره القتل على يد القائد العباسى عيسى بن موسى فى المدينـــة المنورة ٠ وبعد مقتله دعا أخوه ابراهيم الى نفسه وقام لنصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأى والجاه ، ولكن ابراهيم لقى حتفه كأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى أيضا فى موقعة باخمرا بين الكوفة وواسط وذلك فى ذى الحجة سنة ١٤٥هـ ٠

أما ما كان من أمر هذه الدعوة فى مصر فهو أنه لما قدم على بن محمد اليها يدعو لأبيه وعمه توانى حميد بن قحطبة والى مصر فى

م ٧

الأمر ، ولذلك نرى الخليفة أبا جعفر المنصور يعزله ويولى بدلا منه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة (١٤٤ ـ ١٥٢هـ) وفى بدء ولاية الوالى الجديد كانت دعوة بنى الحسن بن على قد ظهرت فى مصر وبايع كثير من الناس لعلى بن محمد ، وكان على هذا أول علوى قدم مصر ، ولكن حين وصلت الأخبار الى مصر بقتل محمد النفس الزكية وأخيه خمدت الحركة فى مصر كما خمدت فى الحجاز والعراق ٠

وأما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلفت الروايات فى أمره فقيل انه أرسل الى أبى جعفر المنصور ، ولكن الراجح أنه اختفى بمصر الى أن مات فيها ، وهكذا انتهت تلك الحركة فى مصر وهى لا تزال فى المهد ٠ وجدير بالذكر أن بعض أفراد البيت الأموى فى مصر كانوا ممن بايع لعلى بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ٠

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذى استطاع بعد خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة مستقلة ، ذلك العلوى هو ادريس بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية ٠ ففى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة يدعو الى نفسه ، ومنها سار الى مكة حيث التقى بجيش العباسيين فى واد يبعد عن مكة بنحو ستة أميال يقال له : فخ ، فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل : « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » ٠ وكان ممن ناصر الحسين بن على فى حركته هذه يحيى وادريس ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على وقد نجحا فى أن يهربا من هذه الموقعة ٠ أما يحيى فقد ثار فى بلاد الديلم فى عهد هارون الرشيد

وانتصر له أهل اليمن ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد فأنفذ اليه الفضل البرمكي ، فمازال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بيده ، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يجف بعد ·

أما ادريس بن عبد الله فقد توجه الى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر فى سنة ١٧٢هـ وكون هناك أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة · وقد مر ادريس بمصر وسهل له واليها المرور من مصر الى افريقية ، بل يقال : ان عامل بريد مصر آنذاك كان يميل للعلويين فحمل ادريس على البريد الى المغرب ·

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم اياهم قد ألجأهم الى الفرار الى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ، ولاسيما ما كان منها مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر · والذى يهمنا أن كثير من آل البيت قد أتوا الى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التى نالتهم على أيدى الخلفاء العباسيين · ولا تزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد · وممن أتى الى مصر فى ذلك العهد السيدة نفيسة رضى الله عنها بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وقد أتت مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم · وقيل ان السيدة نفيسة كانت فيمن صلى على الامام الشافعى حين توفى سنة ٢٠٤هـ وقد توفيت فى شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ وقبرها لا يزال من المقابر المشهورة بالقاهرة ·

ولم نسمع بأن أحدا تعرض للعلويين فى مصر بسوء طوال ذلك العهد الى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) ، وكان يبغض العلويين ، فأرسل كتابا هو

وابنه المنتصر ـ صاحب اقطاع مصر حينذاك ـ الى والى مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥ ـ ٢٣٦ هـ) يأمره باخراج آل على بن أبى طالب من مصر فأخرجوا من الفسطاط سنة ٢٣٦ هجرية الى العراق . وهناك أمروا بالخروج الى المدينة (١) . أما الذين بقوا فى مصر من العلويين فقد اضطروا الى الاختفاء (٢) وقد أصبح العلويون والشيعة فى مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد المتوكل . واستمر الاضطهاد فى خلافة المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ). وفى خلافة المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) خرج أحد العلويين من نسل الحسين وانتهى أمره بأن أخرج من مصر فى جمع من آل أبى طالب الى العراق سنة ٢٤٨ هـ . ثم خلع المستعين من الخلافة وبويع للمعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) ، وكان مقر الخلافة العباسية يعانى اضطرابا كبيرا آنذاك بسبب تحكم الجند والقواد الترك فى شئون الدولة المدنية والحربية . وكان الاضطراب فى مركز الخلافة ايذانا باضطراب الأحوال فى الأقاليم المختلفة فى الدولة الاسلامية كما كان فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن بينهم العلويون .

وقد ثار فعلا بعض العلويين الموجـودين فى مصر وخرجوا علانية فخرج علوى يقال له : ابن الأرقط سنة ٢٥٢ هـ وينتسب الى الحسين بن على وانضم الى جابر بن الوليد المدلجى الذى ثار فى الاسكندرية والوجه البحرى ، وانتهى أمره بأن أخرج الى العراق فى سنة ٢٥٣ هـ . كذلك خرج علوى آخر فى الصعيد عرف باسم بغا الأكبر ولكنه هزم سنة ٢٥٤ هـ ثم فر ومات .

---

(١) الكندى : الولاة والقضـــاة ص ١٩٨ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥ .
(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩ .

كذلك خرج من العلويين بغا الأصغر فى موضع يقال له : الكنائس بين الاسكندرية وبرقة وذلك فى سنة ٢٥٥ هـ ثم سار فى جمع الى الصعيد حيث هزم على يد أحمد بن طولون وقتل فى الحرب وأتى برأسه الى الفسطاط سنة ٢٥٥ هـ • وكذلك ثار بصعيد مصر فى سنة ٢٥٣ هـ أحد العلويين ويقال له : ابن الصوفى العلوى ودخل اسنا فى سنة ٢٥٥ هـ ، وقد بعث اليه أحمد بن طولون جيشا لقتاله ، وانتهى أمر ذلك العلوى بأن ذهب الى المدينة المنورة حيث قضى فيها بقية أيامه •

وهكذا نرى أن العلويين كانوا يخرجون علانية اذا استطاعوا أو يكيدون للخلافة العباسية سرا اذا لم تمكنهم الظروف من الخروج علانية ، وكانوا يعتبرون العباسيين مغتصبين للخلافة كالأمويين ، وقد تتابعت حركاتهم فى نهاية عصر الولاة وشجعهم على ذلك ضعف الخلافة العباسية نفسها حينذاك وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة فى يد الأتراك •

(ب) أثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر

قام النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد ، فقد أخذ الخليفة هارون الرشيد قبل وفاته البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون على أن يلى الأمين العراق والشام الى آخر المغرب ويلى المأمون من همذان الى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه • ولكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى . وقامت الحروب لهذا السبب بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بأن حاصر جيش المأمون بغداد وقتل الأمين فى سنة ١٩٨ هـ وبذلك انتهت خلافة محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون • (٢)

وقد كانت خلافة الأمين (١٩٣ ـ١٩٨ هـ) فترة فوضى واضطراب فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية وذلك للنزاع بينه وبين أخيه ولم تنته تلك الفوضى باعتلاء المأمون عرش الخلافة فى سنة ١٩٨ هـ بل ظلت آثارها عدة سنين · وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضا فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون ، كما ظهرت فى تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات فى الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا فى ذلك الى حد ما · واستطاع أيضا بعض الأندلسيين فى تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه جمهورية مستقلة عن الخلافة فى الاسكندرية ·

وقد بدا اضطراب الجند فى مصر عقب وفاة الرشيد فى سنة ١٩٣ هـ وظهر الاضطراب واضحا منذ سنة ١٩٥ هـ عندما علم أهل مصر بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد ففكر فريق من الجند فى خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السرى بن الحكم ابن يوسف · وقد دخل السرى مصر لأول مرة زمن الرشيد اذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ ـ ١٨٧ هـ) ويقال : ان السرى كان خامل الذكر ولم يرتفع شأنه الا بقيامه فى خلع الأمين · وقد شجع السرى بن الحكم على الاستمرار فى حركته ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين ·

ولم يغفل المأمون أمر مصر فى نزاعه مع الأمين فكتب الى وجوه القوم فيها يدعوهم الى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا · وأرسل قائد المأمون ، هرثمة بن أعين ، الى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيلا على ضياع هرثمة بمصر ، يدعوه الى الدعوة للمأمون · وقد نجح عباد الى حد كبير جدا اذ أجابه الى ذلك معظم الجند فى مصر ، وكان خلع الأمين فى مصر فى جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ وقد ثار الجند على والى الأمين جابر بن الأشعث وأخرجوه من مصر ، ثم

وليها عباد بن محمد من قبل المأمون • وهكذا نرى مصر تدخل فى طاعة المأمون ولما يصبح بعد خليفة كما حدث أثناء النزاع الذى نشب بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان •

أما الخليفة الأمين فانه لم يسلم بما حدث فى مصر فأرسل الى ربيعة بن قيس ، زعيم قبيلة قيس بالحوف يبلغه اختياره اياه واليا على مصر كما كتب الى بعض وجوه القوم فى مصر يطلب اليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس • وفعلا نشبت المناوشات والحروب بين ربيعة بن قيس والى الأمين ، وبين عباد بن محمد والى المأمون •

ثم بدأ يتطور النزاع فى مصر بين الأمين والمأمون الى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة • فنرى عبد العزيز بن الوزير الجروى وهو من قواد عباد بن محمد والى المأمون ، بعد أن يذهب لمحاربة أتباع والى الأمين يفكر فى الأمر من أجل نفسه وأسرته دون الخلافة •

وفى تلك الأثناء ترد الأخبار الى مصر بمقتل الأمين فى المحرم من سنة ١٩٨ هـ لكن الفوضى كانت قد شملت أنحاء مصر جميعا ولم يصغ الجند فى مصر لأوامر الخليفة ولم يهتموا بولاته أو برجال شرطته ، بل ان الجند فى مصر انتخبوا واليا دون والى الخليفة هو المطلب بن عبد الله • وفى تلك الأثناء دخلت بلاد عدة فى شرقى الدلتا فى حوزة الجروى (١٩٩ هـ) • ولم يصبح الجروى هو الطامع الوحيد فى الاستئثار بالسلطة فى مصر بل ينضم الى تلك الزمرة السرى بن الحكم الذى كان يعمل قبلا من أجل المأمون ، واستطاع السرى بن الحكم أن يلى مصر ، باجماع الجند فى سنة ٢٠٠ هـ وأخرج المطلب بن عبد الله من مصر ، وقد قسمت مصر فعلا بين الخارجين على الخلافة فاستولى عبد العزيز الجروى على شرقى الدلتا ، واستولى السرى بن الحكم على الوجه القبلى من مصر

(الفسطاط) الى أسوان ، أما غربى الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام ·

وحدث فى ذلك الحين ما زاد الحالة سوء اذ رسا بالقرب من الاسكندرية حوالى خمسة عشر ألف أندلسى ومعهم نساؤهم وأطفالهم وكان ذلك بعد أن طردوا من بلادهم فى عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨ هـ · وكثيرا ما كان الأندلسيون يأتون الى الاسكندرية لتبادل التجارة ولكن لم يكن يسمح لهم بالدخول فيها · أما فى هذه المرة فقد أقحم الأندلسيون المطرودون من وطنهم فى منازعات الطامعين والولاة حينذاك حتى انهم استطاعوا فى فترة وجيزة أن يصبحوا أصحاب الأمر والنهى فى الاسكندرية · وفى تلك الأثناء ظهر فى الاسكندرية طائفة عرفت بالصوفية « تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر » وقد اتخذت تلك الطائفة رجلا من بينهم رئيسا لهم يقال له : أبو عبد الرحمن الصوفى · ولما ملك الأندلسيون الاسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ ولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ، ولم يلبث الأندلسيون أن عزلوه بعد أن اضطربت فى عهده الأحوال فى الاسكندرية ، وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكنانى · وهكذا أصبحت الاسكندرية شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين ·

ويظهر أن اضطراب الحال فى الدولة الاسلامية دعا الخليفة المأمون الى التسليم بالأمر الواقع فى مصر ، ريثما تهدأ الأمور فولى المأمون السرى الذى كان له أتباع كثيرون فى سنة ٢٠١ هـ ·

وحدث فى سنة ٢٠١ هـ أن بايع المأمون لولاية عهده علويا معروفا هو على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر المأمون جنده بطرح السواد ، شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة شعار العلويين ، وكتب بذلك الى

جميع الآفاق • وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الفارسى الذى كان يدبر أموز المأمون فى مرو ، والايرانيون كما نعلم يميلون الى العلويين • ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة ابراهيم بن المهدى عم المأمون فى سنة ٢٠١ هـ ويخلعون المأمون • وقد زاد اضطراب الأحوال فى الدولة الاسلامية ، ولم يعلم المأمون بذلك اذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ، ويقال : ان الذى أعلمه بهذه الأمور على الرضا وأشار عليه بالرجوع الى بغداد لتهدئة الحالة وليضبط الأمور بنفسه • فسار المأمون الى بغداد ، وفى طريقه الى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ ثم مات على الرضا فى طوس سنة ٢٠٣ هـ • وأخيرا دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤ هـ واختفى ابراهيم بن المهدى ، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال فى الدولة الاسلامية وأن يقضى على الاضطرابات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسى ومن النفوذ العلوى ، وقد استعطفه ابراهيم بن المهدى فصفح عنه •

أما مصر فقد كان ينعكس عليها ما يجرى فى الخلافة من أمور ، لذا نرى الخليفة المأمون حينما بايع لعلى الرضا ، يكتب الى السرى بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا فى المحرم سنة ٢٠٢ هـ فبويع له فيها • على أن المصريين انقسموا على أنفسهم ازاء هذه البيعة كما حدث فى بغداد وسائر الدولة الاسلامية ، اذ كتب ابراهيم بن المهدى الى وجوه الجند فى مصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده والثورة ضد السرى ، وكان من السهل أن يلقى ابراهيم بن المهدى أنصارا له بمصر ، لا حبا فى خلافته ، وانما طمعا من البعض فى السلطان أو لتذمرهم من ولاية السرى أو غير ذلك من الأغراض المختلفة التى كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة •

وكان عبد العزيز بن الوزير الجروى من أنصار الدعوة لابراهيم ابن المهدى وعدم الموافقة على البيعة لعلى الرضا ٠

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخذال ابراهيم بن المهدى أظهروا بيعة المأمون والدعوة اليه ، وقد ورد كتاب المأمون الى السرى بذلك وبغسل المنابر التى دعا عليها لعلى الرضا ٠

وقد ظلت القوى المختلفة فى مصر ـ الأندلسيون والجروى والسرى ـ تتطاحن فيما بينها ، ولقى أهل البلاد كثيرا من العنت وسط هذا التطاحن فقام الأقباط بالثورة ضد التعسف المالى ٠

وأخيرا لقى الجروى حتفه وهو يحاصر الأندلسيين فى الاسكندرية فى صفر سنة ٢٠٥ هـ ثم مات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر فى الفسطاط ، لكن الأحوال لم تهدأ قليلا أو كثيرا بموت هذين الزعيمين ، اذ ورث أبناؤهما النزاع حول الاستئثار بالسلطان فى مصر ، فكان بيد أبى نصر بن السرى الفسطاط والصعيد وغربى الدلتا ، وكان بيد على بن عبد العزيز الجروى بقية الوجه البحرى وقد وقعت الحروب بينهما ثم اصطلحا على أن يكف أحدهما عن الآخر ٠ وحينما توفى أبو نصر بن السرى فى شعبان سنة ٢٠٦ هـ بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر . ولم يتعرض على بن الجروى لعبيد الله بن السرى ٠

وكان عبيد الله بن السرى من القوة بحيث استطاع أن يهزم واليا أرسله الخليفة المأمون من قبله الى مصر حينذاك ٠ ويظهر أن الأمور فى مختلف أنحاء الدولة الاسلامية شغلت المأمون حتى ذلك الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى فى مصر وارجاعها ثانية الى حظيرة الخلافة ، ولذا نراه يرسل رسولا من قبله ، يقر عبيد الله ابن السرى على ما بيده من أرض مصر ، ويقر عليا بن الجروى على ما بيده ٠ وقد ازدادت قوة عبيد الله ابن السرى زيادة كبيرة حتى

استطاع أن يدخل تنيس مقر ولاية الجروى وهرب ابن الجروى الى الفرما ثم العريش سنة ٢٠٩ هـ ، أى أن مصر كلها خضعت لعبيد الله بن السرى اذا استثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطة الأندلسيين · على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته فى الوجه البحرى أو فى شرقى الدلتا فحدثت مناوشات وحروب بينه وبين ابن السرى ، وبينما هما كذلك قدم عبد الله بن طاهر ابن الحسين من الشام موفدا من قبل الخليفة المأمون ليقضى على الفوضى التى سادت فى مصر منذ خلافة الأمين ·

ولما وصل عبد الله بن طاهر الى مصر ، استقبله على بن الجروى استقبالا حسنا وانضم اليه وقدم اليه الأموال ، ثم أرسل ابن طاهر الى عبيد الله بن السرى يدعوه الى الطاعة ، ولكن عبيدا أخذ يستعد لحربه فأعد سفنه وأحكم أموره وحفر خندقه حول الفسطاط ثم اشتبك الفريقان فانهزم عبيد الله بن السرى وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان ·

وقد كتب ابن طاهر الى الخليفة المأمون كتابا يسأل فيه أمان عبيد الله بن السرى ، فأجابه الخليفة الى ذلك ، وكتب ابن طاهر كتاب الأمان لعبيد الله أشهد فيه شهودا من الجند والفقهاء وأشراف أهل مصر فى صفر سنة ٢١١ هـ ، ثم خلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج الى المأمون وبذلك خلصت معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر · وكان أمامه أن يقضى على الجمهورية التى أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ أكثر من عشر سنوات ·

سار عبد الله بن طاهر فى قواده الى الاسكندرية فى بداية صفر سنة ٢١٢ هـ والقى الحصار عليها فى ربيع الأول فطلب أهلها الأمان ، وقد صالح ابن طاهر الأندلسيين على أن يسيرهم من

الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا الى جزيرة اقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم ولى ابن طاهر على الاسكندرية الياس بن سامان ورجع ثانية الى الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢١٢ هـ ٠

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة للخلافة ، بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخلافة وتستقل بأمورها منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى قام فى أوائل حكم المأمون ٠

ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى استطاعا أن يكونا لنفسيهما ولأسرتيهما من بعدهما ملكا شبه مستقل دام أكثر من عشر سنوات ٠ وقد سيطرت أسرة السرى على الفسطاط عاصمة مصر دائما ، وعلى الصعيد فى الغالب ، وأحيانا على غربى الدلتا وقليلا ما سيطرت على شرقى الدلتا ، أما أسرة الجروى فقد سيطرت على شرقى الدلتا من تنيس وأحيانا كان يمتد نفوذها على الصعيد أو على غربى الدلتا ٠ وكانت أسرتا السرى والجروى كغيرهما من الأسرات التى استقلت بمصر فيما بعد ، مثل الطولونيين والاخشيديين ، أى أنه لم يكن لها أساس قوى فى البلاد التى اتخذتها مسرحا لنشاطها ٠ فهذه الأسرات التى قامت فى مصر الاسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وانما كانت حركات فردية قام بها ذوو الشخصيات الطموحة القوية ٠ ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمر طويلا بعد وفاة مؤسسيها وخاصة ان كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التى كانت لأسلافهم ويصح أن تعتبر أسرتى السرى والجروى أول أسرتين شبه مستقلتين فى مصر الاسلامية ، وقد كانتا مقدمة لأسرة ابن طولون التى استقلت بمصر استقلالا فعليا فى الواقع وذاتيا فى الظاهر ٠

(ج) مصر والمحنة بخلق القرآن

نشأ مذهب الاعتزال في البصرة في أواخر عهد الأمويين ، وهو مذهب فكرى دينى ظهر كما ظهر غيره من الفرق والمذاهب في فجر الاسلام نتيجة لتأثر المسلمين بالثقافات الاغريقية والفارسية القديمة والمسيحية التى كانت سائدة فى البلاد التى فتحوها ۰ وقد أخذ فريق من علماء المسلمين يتعمق فى بحث المسائل الدينية على غرار ما كان يفعله رجال الدين والفلاسفة القدماء ، واستطاع المسلمون أن يكونوا لأنفسهم فلسفة تتمشى مع أصول الدين الاسلامى وأحوال المسلمين الاجتماعية ۰ ولا يعنينا هنا أن نبحث فى آراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وانما يهمنا أن الدولة العباسية اتخذت الاعتزال فى وقت ما مذهبا رسميا لها وحملت جميع رعاياها على اعتناقه مستخدمة فى ذلك جميع وسائل القوة والعنف ، وكانت مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب ۰ وكانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى تركز فيها الاعتزال فى تلك الفترة (٢١٨ - ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله ۰ فقد ذهب المعتزلة الى أن القرآن حادث مخلوق نزل فى ظروف معينة وليس أزليا ، وكان من رأيهم أنه اذا نظرنا الى كل كلمة فى القرآن على أنها لها ما للخالق من صفات أزلية فانه يعترينا شىء من العجز فى فهم نصوصه ، وهذا يجعلنا نتمسك بظاهر النصوص ولا نكيف هذه النصوص على حسب العصور والمناسبات ۰ والمعتزلة لا يريدون أن يقف الانسان موقف العجز الى هذا الحد ، فهم يريدون أن يرى الانسان هذه النصوص مرنة يمكن تكييفها فى مختلف الأحوال ۰ ومن حجج المعتزلة المتعلقة بخلق القرآن أن فيه أشياء متباينة كالأمر والنهى ، والخبر والاستخبار ، والوعد والوعيد ، واذا كان

القرآن قديما أزليا قدم الله فكيف يكون فيه ، أشياء متضادة والله منزه عن التضاد والاختلاف والتباين !؟ واذا كان كلام الله أزليا فكيف يخاطب الله موسى !! كيف يخاطب الله رجلا قبل أن يخلق !؟ وقد رأى المعتزلة أنه لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه كالسمع والتكلم والبصر ، كما أن الصفات تفيد معنى التعدد والله واحد • وقالوا : كيف تكون هذه الصفات أزلية مع أنها صفات عارضة يمكن أن تعطل ، فيصبح السامع أصما والمتكلم أخرس والمبصر أعمى !!

ولذا نرى المعتزلة يقولون بخلق القرآن لأن صفة الكلام فى نظرهم منفية عن الله تعالى ولا يمكن اعتبار القرآن كلام الله الا على التأويل •

وقد أظهر الخليفة المأمون القول بخلق القرآن فى سنة ٢١٢ هـ الا أنه لم يحمل الناس على انباعه الا فى سنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم ، اذ كتب الى والى بغداد ، اسحق بن ابراهيم ، يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ويعاقب من لا يقر بخلقه • على أن المأمون توفى بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجب سنة ٢١٨ هـ) ، فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) ثم الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن نذكر منهم الامام أحمد بن حنبل ، كما قتل البعض الآخر • وبقدر ما كان الخلفاء يشتدون فى تلك المسألة كان العلماء والشعب يعارضون فيها ، وقد أصبحت كلمة المحنة تعنى اختبار العلماء فى القول بخلق القرآن وما لاقوه فى ذلك من عذاب ، وهكذا أصبحت الدولة الاسلامية كلها موضوع محاكمة • ويهمنا ما كان من أمر مصر فى هذه المسألة •

فى ولاية كيدر نصر بن عبد الله (٢١٧ ـ ٢١٩ هـ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب اقطاع مصر حينذاك) فى جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هـ يأمر بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود ، وأن يعزل القاضى ان لم يقر بخلق القرآن ، وكذلك طلب منه ألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة الا اذا أقر بخلق القرآن ٠

والظاهر أنه لم تقم فى مصر فى أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن ، كما قامت فى العراق مقر الخلافة ، ولم تتعرض مصر لما تعرض له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد بسبب المحنة وربما أقر المصريون القول بخلق القرآن تقية فكفاهم هـذا شرا كثيرا ٠ ولذا كان أمر المحنة فى مصر سهلا فى آخر خلافة المأمون وفى خلافة المعتصم ، ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد المحنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة ، فلما ولى الواثق الخلافة (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما فعل المأمون ، ولذا نجده يرسل الى قاضى مصر محمد ابن أبى الليث يأمره بامتحان الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالمحنة وعندئذ عارض كثير من المصريين المحنة وثاروا ضدها فملئت السجون بهم كما هرب الكثيرون ٠

وقد أمر ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد « لا اله الا الله رب القرآن المخلوق » ٠

وكان ممن هرب بسبب المحنة أحد علمـاء مصر المشهورين حينذاك ، وهو ذو النون بن ابراهيم الأخميمى لكنه وقع فى يد القاضى ابن أبى الليث فأقر بخلق القرآن (١) ٠

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٥٣ ٠

وممن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى المصرى صاحب الامام الشافعى (١) فقد حمل الى بغداد وظل ممتنعا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك الى أن توفى سنة ٢٣١ هـ ٠

وعلى وجه الاجمال كان أمر المحنة فى مصر خفيف الوطأة على المصريين ، فلم يقاسوا بسببها الا بضع سنوات فى عهد الخليفة الواثق فملئت السجون بهم ، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن وطنهم ، ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث القتل أو التعذيب كما كانت الحال فى العراق ٠ فلما ولى الخليفة المتوكل العباسى أبطل فى سنة ٢٣٤ هـ هذه المحنة من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الاسلامية ٠ وقد فرح الناس بهذا فرحا عظيما وعظموا المتوكل حتى قيل : « الخلفاء ثلاثة ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد مظالم بنى أمية ، والمتوكل فى احياء السنة » (٢) ٠

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٠ ٠

الباب الثالث

انتشار الاسلام وتعريب مصر

١ ـ العرب والأقباط فى عصر الولاة

كان للفتوحات العربيه أثر ملحوظ فى سرعه انتشار الدين الاسلامى فى كل الأقاليم التى فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية ، فدخل الدين الاسلامى فى هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تغلب على الأديان التى وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيها ، والمعروف أن الدولة العربية التى قامت بقيام الدين الاسلامى والتى كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أحدا من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه ٠ وكان العرب فى مصر وغيرها من البلاد التى فتحوها يخيرون أهالى البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الاسلام أو الجزية أو الحرب ٠ كذلك لم يكن للاسلام مبشرون أو دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة لهذا الدين كما فى الديانة المسيحية ٠ واذا كانت هذه هى سياسة العرب الدينية العامة فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحوها فيهمنا أن نعرف كيف انتشر الدين الاسلامى فى مصر ، حتى أصبح المسلمون أغلبية فى أواخر عصر الولاة ٠

دخل الاسـلام فى مصر لأول مرة بدخول العرب فاتحين ، وتشير المصادر التى عاصرت الفتح الى أن عددا من المصريين قد أسلم قبل فتح مصر نهائيا ، وكان هؤلاء نعم العون للعرب ، ومن هؤلاء أحد رهبان دير سينا (١) • ولا شك أن بعض الذين أسلموا زمن الفتح كان اسلامهم عن ايمان واعتقاد ، كما أسلم البعض الآخـر رغبة فى الانتماء الى دين الطبقة الحاكمة • ثم أخذ الدين الاسلامى ينتشر تدريجيا فى مصر كلما تقادم العهد بالعرب فيها ، كما وجدت فترات معينة كان التحول فيها الى الدين الاسلامى بكثرة ملحوظة • ويجدر بنا أن نبين أولا كيف كان موقف الأقباط من الفتح العربى •

كان معظم المصريين فى ذلك الوقت من الأقباط الأرثوذكس والذين تسميهم بعض المراجع « اليعاقبة » وكان هنـاك أقلية من الأقباط يتبعون المذهب الملكانى أو الخلقدونى • ونلاحظ أن العرب فى فتحهم لمصر كانـوا يحـاربون البيزنطيين لا المصريين • وكان المصريون اذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينيـة حتى ان المؤرخين المصريين المسيحيين فى العصور الوسطى يذكرون صراحة أن انتصـار العرب هو غضب من الله على الروم بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة ، وبسبب استبداد هرقل والاضطهادات التى أنزلها بالأرثوذكس فى مصر على يد قيرس (٢) • لهذا نرى الأقباط يساعدون العرب فى أثناء فتحهم لمصر • وجدير بالذكر أن وجود مصريين كثيرين فى جيش البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله فى حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا فى الدفاع

---

(١) حنا النقيوسى : تاريخ ص ٥٨٥ •

(٢) انظر المرجع السابق ص ٥٨٤ ، ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة (T. I) ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ •

عنها . على أننا لا نستبعد أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقف الحياد كما ذكرنا قبلا وذلك لعلمهم أن الترحيب بالعرب معناه انتقالهم من تبعية الى تبعية أخرى . كذلك حارب فريق من الشعب المصرى فى صف البيزنطيين وهؤلاء كانوا اما صنيعة للبيزنطيين أو ربما توقعوا أن يكون النصر للبيزنطيين لا للعرب . لكن الروح السائدة من جانب المصريين بوجه عام كانت روح ترحيب بالعرب .

وهذا هو موقف الأقباط بالنسبة للفتح العربى . ولنر كيف كان موقف العرب من الأقباط .

حينما فتح العرب مصر أخذوا يتحببون الى الأقباط ـ وهم أهل البلاد ـ كى يضمنوا ولاءهم واخلاصهم حتى نستقر أقدامهم فى مصر .

ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر فى عدة أحاديث نذكر منها قوله : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة » اذ كانت هاجر زوج ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل منهم، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أيضا (١) . ولسنا نعرض هنا لصحة هذا الحديث ، ولكنه يشهد على كل حال ، بموقف المسلمين من الأقباط فى فجر الاسلام وحين جمعت الأحاديث ونعرف أنه بعدما استولى عمرو بن العاص على الاسكندرية أعاد اليها بنيامين بطرك الأقباط الذى كان

---

(١) انظر المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٣ .

قد اضطر الى الاختفاء عند مجيء قيرس الى مصر · فعم السرور والفرح بين القبط ، ولا يستبعد أن يكونوا قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم حينما أغاروا على الاسكندرية سنة ٢٥ هـ · وقد ذكرنا سابقا أن أهل مصر ألحوا على عثمان بن عفان سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن العاص اليهم لطرد الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعتهم ·

كذلك انتصر المسلمون للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم فى المذهب الدينى وهم الملكانيون ، فاسترد الأرثوذكس عددا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد أعدائهم الملكانيين ، كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكى يجذبوا الى مذهبهم كثيرا من الملكانيين بل حدث فى ولاية قرة بن شريك على مصر أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة · ولم يتمتع الملكانيون ببعض الحرية الا فى فترات معينة محدودة ولأسباب خاصة ، فمثلا نرى الخليفة هشام بن عبد الملك ـ على أثر الاتفاق الذى تم بينه وبين البيزنطيين ـ يأمر واليه على مصر ، عبيد الله ابن الحبحاب أن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى يد اليعاقبة كما نصب بطركا لهم بعد أن كانوا قد أقاموا بغير بطرك منذ الفتح ·

كذلك بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى ، وجددت كنائس أخرى · كما ظل الأقباط يحتفلون بأعيادهم الدينية التى يعددها لنا المقريزى فى كتاب « الخطط » (١) · ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئا يحد من حرية الأقباط فى احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ، وان كان ولاة مصر فى ذلك العهد لم يشتركوا فى الاحتفالات الرسمية بهذه الأعياد كما حدث بعد ذلك مثلا فى عهد

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٩ ·

الاخشيديين والخلفاء الفاطميين · ولعل السبب فى ذلك هو أن مصر كانت جزءا من الخلافة فلم يحـرص الولاة على أن يتقربوا للشعب بعكس الاخشيديين الذين كانوا يتقربون الى الشعب ليعاونهم فى استقلالهم عن بغداد ، كذلك كان الفاطميون يتوددون الى الشعب كى يتقووا به ضد خلافة بغداد · أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة فى ذلك لأن الكثير منهم كان من أصل قبطى · وربما اكتفى ولاة مصر فى ذلك العهد بمشاركة الأقباط فى الاحتفال بوفاء النيل كل عام ، ذلك الاحتفال الذى ظل منذ عهد الفراعنة الى الآن لأن النيل مصدر ثروة مصر ورخائها · ويذكر ابن عبد الحكم ـ وهو أقدم مؤرخ مصرى مسلم ـ ومن نقل عنه من المؤرخين (١) ، أن العرب أبطلوا عقب الفتح مباشرة عادة القاء فتاة مزينة بالحلى والثياب فى نهر النيل قبل حلول الفيضان وذلك ليفيض النيل · على أننا نرى أن هذه الرواية انفرد بها ابن عبد الحكم الذى توفى فى سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ ـ ٨٧١ م أى عقب الفتح بأكثر من قرنين ، وأخذها من بعده المؤرخون بعيدة عن الحقيقة · فلا يعقل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة ان كانت قد وجدت فى عهد الفراعنة · وقد ثبت أيضا أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهى القاء فتاة مزينة على قيـد الحياة فى النيل · ومسألة « عروس النيل » معروفة منذ القـدم ولكن المؤرخين الاسلاميين اعتبروها حقيقة لامجازا ، وقد يكون ذلك لتباعد العصور ولتحريف الروايات حينما تتناقلهـا الألسن من شخص الى شخص ومن عصر الى عصر · والحق أن المصريين فى العصر القديم كانوا يزوجون تماثيل النيـل بتماثيـل عروسـه ،

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٠ ـ ١٥١ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٥ : المقريزى الخطط ج ١ ص ٥٨ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٦ ·

فالمسألة كانت مسألة رمزية لاحقيقية ، اذ كان الشعب المصرى فى كل العصور يرى من الواجب عليه أن يقدم هدية ثمينة الى نهر النيل الذى يجلب لبلاده الخيرات الواسعة ·

وكان المسلمون يشتركون فى عصر الولاة مع الأقباط فى الصلاة من أجل النيل اذا كان الفيضان منخفضا وهددت مصر بالقحط والمجاعة وكانت صلاة المسلمين لأجل المياه تعرف بصلاة الاستسقاء·

ونلاحظ أيضا أن الفتح العربى ساعد ــ أولا ــ على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة · فأصبحت الدروس الدينية فى الكنيسة تقرأ باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية · كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى سميت بأسماء يونانية أيام اليونان والرومان ، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع الى الأسماء المصرية القديمة · فمثلا نجد اسم اخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis واهناسيا بدلا من Héracléopolis والأشمونين بدلا من Hermopolis على أن هذا كله كان بعثا لقديم لم يندثر تماما ؛ فان اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أمرها حينا من الدهر ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربى ، والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصرى الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة ، كما أننا لانزال نستعمل فى وقتنا الحالى ألفاظا عامية ترجع الى اللغة المصرية القديمة والى اللغة القبطية التى اشتقت منها ·

كذلك ترك العرب مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين · ولا شك أن الأقباط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها ·

وقد أصبح للأقباط فى ظل العرب نصيب كبير فى ادارة بلادهم ربما لم يصلوا اليه قبل الفتح العربى ٠ وقد كان فى الحكومة المركزية فى الفسطاط ، أو حلوان – التى اتخذها عبد العزيز بن مروان حاضرة له – كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا (الوجه القبلى) ومصر السفلى (الوجه البحرى) ٠ وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء المسيحيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال ٠ والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموى ٠ وفى بداية العصر العباسى كان هناك رئيسان للمالية من المسلمين ٠ كذلك نجد فى عصر الولاة أمثلة كثيرة لحكام المدن والكور الأقباط . بل انه فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا ٠

وقد كان لوالى مصر حق الاشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى مصر ٠ ويظهر من النصوص أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطرك ، كما أن البطرك والأساقفة كانوا يذهبون من الاسكندرية ، مقر البطاركة ، الى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطركية ٠ ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية اذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أحد البطاركة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية٠

وهكذا نرى أن العرب تركوا القبط أحرارا فى دينهم وفى ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافرا فى ادارة بلادهم ٠

على أن سياسة العرب نحو الأقباط بدأت تتغير عما كانت عليه فى السنين الأولى التى تلت الفتح ٠ ووجد قسم كبير من الأقباط أن من مصلحتهم الدخول فى الدين الاسلامى والتعرب هربا من المضايقات الاجتماعية والأدبية ، أو فرارا من الضرائب المتزايدة عليهم ، أو رغبة فى الابقاء على مناصبهم ٠ كذلك نشأ عن سياسة

بعض الخلفاء وولاتهم فى مصر أن زادت حركة التعريب والدخول فى الاسلام فتمصر العرب فى مصر ، وتعرب الأقباط بحيث تكون فى أواخر عصر الولاة الشعب المصرى الاسلامى ٠

والمعروف أن العرب بعد فتوحاتهم العظيمة ، وتفوقهم على شعوب لها حضارات عريقة ، وبعد استقرار أقدامهم فى البلاد المفتوحة بدأوا يشعرون بتفوق شعبهم على سائر الشعوب وبتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والأديان ٠ ولم تكن هذه النزعة قوية فى السنوات الأولى للفتوحات العربية ، حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ولكنها سرعان ما ازدادت وضوحا وكان مثلهم فى ذلك مثل اليونان والرومان من قبل ٠ وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكر المقريزى (١) عن معاوية بن أبى سفيان فقد أثر عنه أنه قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس ، فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى ، والثلث الذين لا ناس المسالمة (٢) يعنى القبط » ٠

وقد وقع الأقباط تحت طائل المضايقات والشدة لكن هذه المضايقات لم تكن دائمة ، وانما حدثت فى فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال اذا قورنت باضطهاد المسيحيين فى مصر أيام الامبراطور الوثنى دقلديانوس أو باضطهادهم أيام الامبراطور هرقل المسيحى ٠ كذلك لم تكن المضايقات أيام العرب لتقارن مثلا

---

(١) الخطط ج ١ ص ٥٠ ٠

(٢) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقريزى ج ١ ص ٥٠) أو من يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط المقريزى ج ١ ص ١١٠) ٠

باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ، ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش فى أسبانيا باقية ما بقى التاريخ ٠

ومن المضايقات التى تعرض لها الأقباط فى مصر أنه كان هناك امور يجب على أهل الذمة اتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزيهم والدواب التى يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية ٠ ويذكر المؤرحون أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بألا يتشبه أهل الذمة فى الدولة الاسلامية بالمسلمين فى مظهرهم وفى لباسهم وألا يبقى من الكنائس الا ما كان قبل الاسلام كما أمر الخليفة بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة وكذلك منع الخليفة من تجديد أية كنيسة ٠ لكن مؤرخى مصر الاسلامية وان كانوا قد تعرضوا لأوامر عمر بن الخطاب الخاصة بأهل الذمة الا أنهم لم يذكروا الى أى حد اتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة ٠

ويظهر أن أقباط مصر ، أو أهل الذمة على وجه الاجمال من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيق عليهم فى الزى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدؤه الى عمر بن الخطاب ، أو الى سميه الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، الا فى النادر فلم يكن يراعى هذا التضييق على أهل الذمة الا فترات قصيرة جدا ثم يهمل شأنه ، وفى سنة ٢٣٥ هـ أيام الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالسة(١) العسلية والزنانير (٢) ، وركوب السروج بركب الخشب ، وتكون

---

(١) الطيلسان شبه طرحة أو شال يلقى على الكتفين وعلى الراس فى بعض الأحيان ٠

(٢) الزنار والزنارة والجمع زنانير ما يشد على الوسط ٠ أو الحزام الخاص باهل الذمة ٠

السروج كهيئة الأكف (١) ، وعلى رءوسهم القلانس المختلفة الألوان وأن تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم ، كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلى ، وأزر نسائهم عسلية ، وملبس مماليكهم مثلهم ويمنعون من لبس المناطق · وهدم بيعهم (٢) المحدثة ، وأخذ العشر من منازلهم فان كان الموضع واسعا صير مسجدا ، وان كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء ، وأمر أن تجعل على باب دورهم أساطين (٣) ، وقيل شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ، ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين وأن يعلمهم مسلم ، ونهى أن يظهروا فى اعيادهم وشعانينهم صليبا ، وامر أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ، وكتب الكتب الى عماله فى الآفاق بذلك· ثم أمر أهل الذمة فى سنة ٢٣٩هـ بلبس دراعتين(٤) عسليتين على الدرايع والأقبية (٥) ، وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين (٦) ·

ولم تكن أوامر المتوكل جديدة وانما كانت تجديدا لما سبق · فالذميون ألزموا قبله بأمور تميزهم عن المسلمين فى الزى والركوب، وبشروط خاصة ببناء الكنائس وغير ذلك ، ولكن الخلفاء وولاتهم

---

(١) أكاف الحمار بردعته جمعها أكفه وأكف ·

(٢) البيعه الكنيسة أو المعبد ·

(٣) الاسطوانة العمود والجمع أساطين ·

(٤) الدراعة قميص مفتوح من الأمام الى موضع القلب ومزين بالزراير ·

(٥) القباء · ثوب يلبس فوق الثياب · الجمع أقبية . ويلبس تحت القباء الجبة ·

(٦) البرذون : التركى من الخيل ·

فى مصر كانوا يتساهلون فى تنفيذها فى معظم الأحيان ، وقد حدث فى عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) أن ولى القضاء محمد بن مسروق الكندى ، وتحامل على أهل مصر فأمعنوا فى الطعن فيه ودعوا عليه فى المساجد فوقف على باب المقصورة وصاح قائلا : « أين أصحاب الأكسية العسلية ٠٠ ؟ » (١) وربما قصد القاضى بقوله « أصحاب الأكسية العسلية » التحقير من شأن المصريين المسلمين الذين انحدروا من أهل الذمة . والذين كانوا يتميزون عن المسلمين بلبس الملابس العسلية اللون ٠

والواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتغلب عليهم الشعور بعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا امبراطوريتهم الاسلامية بحد السيف ، فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم فى اللباس والزى والركوب وغير ذلك مما يشعر فى الوسط الاجتماعى بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم ٠ ولذا نراهم يعاملون أهل الذمة معاملة الطبقات الدنيا ، مهما كانت ثروتهم أو مراكزهم فى الدولة مما حمل الكثير على الدخول فى الدين الاسلامى رغبة فى التخلص من تلك المضايقات ٠ كما أن العرب وقد أصبحت البلاد التى فتحوها ملكا للمسلمين ، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها ويكفيهم أن يبقوا على ما وجدوه منها وألا يتدخلوا فى شئون أهل الذمة الدينية ٠

ولكنا نلاحظ على وجه الاجمال أن أوامر الخلفاء بخصوص التمييز بين المسلمين وأهل الذمة كانت تنفذ فى حين صدورها بدقة ولكن التمسك بها كان يقل تدريجيا ، وكثيرا ما كان يتسامح مع أهل الذمة فى بناء الكنائس وفى الاحتفال بأعيادهم الدينية وفى مظهرهم العام ٠

---

(١) الكندى : الولاة والقضاه ص ٣٩٠ ٠

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) احلال المسلمين محـــل المسيحيين حتى فى الوظائف الصغيرة . ويحدثنـا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمــونين ومؤرخ سـير البطاركة ، عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيرا عظيما أمام الناس ، ويفعل السوء أمام الله ، اذ أمر باعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج ، وعمر المدن التى خربت وأبطل الجبايات ، أى الضرائب المستحدثة ، فعاش الأقباط فى أمن وهدوء ولكنه ما لبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ما داموا على دينهم ، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد(١). كذلك استبعد عمر بن عبد العزيز رؤساء الكور الأقبـاط وأحل محلهم المسلمين (٢) . وربمـا أدى قرار عمر بن عبد العزيز الى اسلام كثيرين اذ ذاك كى لا يتركوا مناصبهم ، مع أن القرار ذاته لا يمكن أن يكون قد استمر كثيرا بعد وفاته لأن الأقبــاط ظلوا يشغلون كثيرا من مناصب الدولة وظل بعض الموازيت ، أو رؤساء القرى والكور ، يختارون من القبط . وحسبنا أن احـدى الأوراق البردية المعروفة فى هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيهـا اسم مازوت قبطى .

وقد بدأ العرب بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون الى تعريب البلاد والى جعل اللغة العربية لغة رسمية ، وذلك لعدم معرفتهم للغة القبطية . بل اننا نرى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى كان يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه (٦٥ ـ ٨٦هـ) يأمر بترجمة الانجيل وعدة كتب دينية مسيحية أخـرى الى اللغة

---

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة (T.V) ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٩ .

العربية ، وذلك ليعرف المسلمون اذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامى بسوء • وقد حدث فعلا أن عربت دواوين الدولة الاسلامية فى ذلك الحين ، اذ كانت الدواوين فى البلاد المفتوحة حتى مجىء عبد الملك بن مروان تكتب بلغات البلاد المحلية ، فكانت تكتب باليونانية فى الشام ، وبالبهلوية فى العراق والأمصار الشرقية ، وبالقبطية واليونانية فى مصر وكان ذلك طبيعيا لقلة خبرة العرب بأمور الادارة ولأن الكتابة فن خاص • ولكن توسع خبرة العرب واستقرار الدولة واتجاهها نحو الوحدة المركزية أدى الى وجوب التعديل ، فضلا عن السياسة العربية التى سار عليها بنو أمية ، ومع ذلك فان المؤرخين المسلمين يوردون أسبابا تافهة لتعريب الدواوين مثل تثاقل كاتب أو خصام بين كاتبين وغير ذلك ، وقد شرع فى هذا التعريب أيام عبد الملك بن مروان وبدىء بتعريب دواوين الشام والعراق • وكان الحجاج بن يوسف الثقفى صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقا • أما فى مصر فقد بدىء فى تعريب دواوينها فى خلافة الوليد بن عبد الملك وذلك فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) فى ولاية عبد الله بن عبد الملك •

ولم تتم عملية التعريب فى أنحاء الدولة الاسلامية الا بعد أن عربت دواوين خراسان فى أواخر الدولة الأموية فى ولاية نصر بن سيار حوالى سنة ١٢٤ هـ • والواقع أن هذا التعريب كان أول عملية ترجمة منظمة وجبارة ، وقد أدى الى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية الى العربية ، وأصبحت الدولة من الناحية السياسية عربية بمعنى أكمل • وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالى والأقباط فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، كما بدأت تظهر طبقة الكتاب ، كذلك

أصبحت اللغة العربية لغة الادارة فضلا عن أنها صارت لغة الثقافة بالاضافة الى أنها لغة السياسة والدين ·

ولعل كثيرا من أهل مصر اضطروا الى التخلى عن مناصبهم للعرب أو الى المصريين الذين تعلموا اللغة العربية · وربما دعاهم التعريب الى تعلم اللغة العربية كى يعودوا ثانية الى المناصب التى فقدوها ·

ومن المضايقات التى وقع الأقباط تحت طائلها أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) أمر فى سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبان فى كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التى فى الكنائس· ولذا نرى ساويرس بن المقفع يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طرق الله ·

وقد شمل هذا القرار اللا أيقونى (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الاسلامية وكان من نتائج هذه الحركة فى مصر أن كسرت التماثيل والصلبان ومحيت الصور ولم تنج فى هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب ·

ويجدر بنا أن نشير الى أن الامبراطور البيزنطى ليو الأيسورى أصدر قرارا بحظر الصور والتماثيل الدينية مشابها لقرار يزيد بن عبد الملك وبعد قراره بنحو أربع سنوات أعنى فى سنة ٧٢٦ م (١٠٨ هـ) ويحتمل أن الدولة البيزنطية كانت متأثرة فى ذلك بجارتها الدولة الاسلامية ·

وقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التى قامت من أجل النزاع حول الخلافة · فعندما أتى الخليفة مروان بن محمد هاربا الى مصر ، عاث جنده فى البلاد فسادا ، فقتلوا جماعة من

رجال الدين الأقباط ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيرا من الكنائس واعتدوا على كثير من الراهبات . وفى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على الأقباط فى الاسكندرية وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادى النطرون ونهبت فلم يبق بها من رهبانها الا نفر قليل .

ولا شك أن المضايقات التى نالت الأقباط فى مصر أحيانا ، والتعصب لكل ما هو عربى ومسلم ، وتعريب الدواوين ، لا شك أن هذا حمل كثيرا من المسيحيين فى عصر الولاة على اعتناق الدين الاسلامى وعلى تعلم اللغة العربية ، ولا يمكننا القول بأن اسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من مضايقات حكومة عصر الولاة كان صحيحا ولكن ذريتهم كانت تنشأ فى الوسط الاسلامى فيعتزون بدينهم الاسلامى ويندمجون فى الجماعة الاسلامية تماما .

٢ ـ الأقباط والنظام المالى

اهتمت الخلافة عقب فتح مصر مباشرة باستغلالها وبجباية أموالها . وتشهد المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين عمرو بن العاص عقب الفتح على أن الخليفة كان يريد جباية نفس القدر الذى كان يجبيه الروم من مصر (١) . كذلك يذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال للقبط : ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته . وسمع عمرو بأن أحد أهالى الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك ، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله . فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفا من القتل (٢) ولا نستطيع أن نتبين من هذا النص هل كان هذا نوعا من الاغتصاب ، وهذا ما نستبعده وخاصة زمن الفتح ، أو كان الغرض من معرفة الكنوز حسبان ذلك فى

(١) انظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) ص ١٥٨ ـ ١٦١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر (طبعه تورى) ص ٨٧ .

تقدير الجزية ، أم كان القبط ملزمين بتقديم جزء من كنوزهم للمساهمة فى أمور الدولة ، ولتقدير ما يفرض عليهم من الضرائب الأخرى غير الجزية • كل هذا لا نستطيع استخلاصه من المصادر التى بأيدينا • ولذا نجد أن المصريين سرعان ما عادوا الى ما كانوا فيه نحت حكم الروم فوقعوا تحت الأعباء المالية الكثيرة التى تطلبتها الخلافة ، وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضا • ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها فى العصر الأموى كان أكثر منه فى العصر العباسى لأن الولاة كانوا أكثر استقرارا من ولاة العصر العباسى • أما فى العصر العباسى فقد اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب اقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان هم الوالى جمع مايمكن جمعه من المال لنفسه أولا ، وللخلافة أو لصاحب الاقطاع ثانيا •

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية . ولذا كانت الجزية سببا فى اسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها ، وهذا طبعا معناه نقص فى دخل الدولة • وربما حدا هذا بالخلفاء الى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل : ان الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل الى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم (١) • واذا كان هذا صحيحا أى أن الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يحملهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم منهم • والملاحظ أن الأعباء المالية

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٤ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ •

أخذت تزداد تدريجيا على الأقباط مما دعا الكثيرين الى :لتحول الى الدين الاسلامى فرارا منها ، وعندما كثر عدد الأقباط الذين دخلوا فى الاســـلام ، كثر العبء المالى على من بقى على دينــه منهــم · ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ما هى نسبة نقص الجزية بسبب اعتناق الأقباط الدين الاسلامى · لأن المؤرخين كثيرا ما يجمعون بين الجزية والخراج ، فيقال : ان عمرو بن العاص جبى من مصر اثنى عشر مليون دينار ، وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان أربعــة وعشرين مليون دينار · وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص فى هذه الكلمات : « يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول · فقال عمرو : أضررتم بولدها (١) · ويذكر المقريزى (٢) أن الذى جباه عمرو ثم عبد الله انما هو من الجماجم (٣) خاصة دون الخراج ·

وعندما زاد التحول الى الدين الاسلامى بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس فى أيام معاوية بن أبى سفيان خمسة ملايين دينار · وبلغ فى أيام هارون الرشيد أربعة ملايين دينار · وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالى ثلاثة ملايين دينار (٤) اذا استثنينا فترات معينة · كذلك بدأ والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ) سنة فرض الجزية على الرهبان ، اذ أمر باحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض دينارا جزية على كل راهب ، وأمر ألا يترهب أحد بعد من أحصاه ، وكانت هذه

---

(١) ابن عبد الحكم · فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٦١ وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٨ ·

(٢) الخطط ج ١ ص ٩٨ ·

(٣) يقصد بالجماجم هنا جزية الرءوس ·

(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩ ·

أول جزية أخذت من الرهبان (١) . والمعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان والبيزنطيين ، ففضل كثير من المسيحيين أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة . ولما كان الراهب لايملك شيئا ويعيش فى عزلة ، لذا لم تفرض عليه أية ضريبة على أن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام ، ما لبثت أن زادت ثروتها ووقف عليها أملاك كثيرة ، لكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين لم تكتف باعفائها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدرا معينا من المال . فلما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجودا قبلهم من التقليد الذى يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان . وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لاتقع تحت طائلة الأعباء المالية . وقد لجأ كثير من الأقباط الى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب ففطنت الحكومة الى ذلك وبادرت باحصاء الرهبان وفرضت عليهم الجزية . ولعل الولاة كانوا يحاربون الرهبنة لأن كثيرا من أفراد الشعب كان يقبل عليها فرارا من دفع الضرائب فضـــلا عن أن الرهبنة كانت تحرم البلاد من الأيدى العاملة ، أضف الى ذلك أن الأديرة كانت تملك كنوزا وثروات كبيرة .وهذه العداوة بين الرهبان والولاة تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين فى ذلك العصر ـ وجلهم من الرهبان ـ ضد الاسلام والحكومة الاسلامية .

وفى خلافة الوليد بن عبد الملك وأثناء ولاية أخيه عبد الله ابن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٠ هـ) زادت الأعباء المالية على الأقباط .

---

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة (T.V.) ص ٥١ والمقريزى : خطط ج ٢ ص ٤٩٢ .

وقد أسلم عدد منهم ، لكن من ناحية أخرى قامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد سياسة حكومة العرب المالية من جانب الذين لم يرضوا بتغيير دينهم بسبب الأعباء المالية · فأخذ بعض الأفراد يهربون الى مناطق مختلفة غير تلك التى كانوا مقيدين فيها بعد أن وجدوا ألا فائدة من الاعتصام في الأديرة · غير أن هذا الوالى تشدد فى قمع تلك الحركة التى كانت تهدد باثارة الفوضى فى مصر فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة ، فأمر بوسم الغرباء الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وارسلهم الى مواضع مختلفة·

وقد استمرت حركة الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى خلف عبد الله بن عبد الملك (٩٠ ـ ٩٦ هـ) ، بل انها اتخذت فى عهده شكلا واسعا فكانت أسرات بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان الى مكان ، لاتستقر فى مكان معين ، وذلك فرارا من دفع الضرائب · وكان محور هذه الحركة الزراع ، ولذا كانت هذه الحركة تهدد ثروة مصر الرئيسية ، واضطر قرة ازاء هذا انشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة واعادة كل شخص الى موضعه · والواقع أن قرة لم يكن بالوالى الظالم كما يصوره بعض المؤرخين ؛ فقد راينا من أوراق البردى أن قرة كان يهتم بعدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم الاجحاف بأهل الذمة ، كما كان يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب اذا ظلموا الأهالى فى تقدير الضرائب المفروضة عليهم ، وكان يتجاوز أحيانا عن بعض ما كان يدفع كل عام من الجزية فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادو دفعه كل عام رفقا بهم · ومع ذلك فان الأعباء المالية كانت فى ازدياد وخاصة على أهل الذمة الذين بقوا على دينهم ·

وقد ظل قرة يتابع حركة الهروب بنشاط كى يقضى عليها الى أن مات فى سنة ٩٦ هـ ·

وفى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ) كان متولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى . وقد اشتد أسامة فى طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانوا فى جمع الضرائب فأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الأعباء المالية ، ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الأقباط الذين أثقلتهم الأعباء المالية . وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد غريبا فى الكنائس أو الفنادق أو السواحل . ولكى لايتمكن أحد من الهرب من منطقة الى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بالبطاقات الشخصية اليوم ، فألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة الى جهة فى أنحاء القطر المصرى ، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله والا قبض عليه وألزم بغرامة كبيرة وعقوبات رادعة .

وقد عمل أسامة بن زيد احصاء ثانيا للرهبان بعد الاحصاء الأول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وجبى منهم الجزية كما أمر الرهبان ألا يقبلوا فى الرهبنة من يأتى اليهم بعد ذلك . وأمر أسامة بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى كان يكتب عليها اسم بيعته وديره والتاريخ . أما من وجد هاربا أو غير موسوم فقد كان يلقى عقابا قاسيا .

ويظهر أن نفرا كثيرا كان قد أسلم حتى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب الى عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية ... فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » .

وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم مثلما فعل الحجاج بن يوسف فى العراق فى خلافة عبد الملك بن مروان .

ولكن عمر بن عبد العزيز الذى أظهر رغبة شديدة فى نشر الدين الاسلامى رد عليه قائلا : « ٠٠ فضع الجزية عمن أسلم ـ قبح الله رأيك ـ فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه (١) » ٠

ويظهر أن أخذ الجزية ممن يسلم قد بدأ فى مصر قبيل عهد عمر بن عبد العزيز ، والظاهر أيضا أن سياسة اعفاء الذين يعتنقون الاسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل أننا نرى بعد ذلك العهد أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الاسلامى ٠

فنرى مثلا أنه فى ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر سنة ١٢٧ هـ من قبل الخليفة مروان بن محمد ، عندما أعلن اعفاء كل من يسلم من الجزية ، اعتنق نحو أربعة وعشرين ألفا من الأقباط الدين الاسلامى ٠ كذلك عندما قرر الخليفة العباسى أبو العباس السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الاسلامى ويقيم شعائره ، تخلى كثير من المسيحيين أغنياء وفقراء عن دينهم واعتنقوا الدين الاسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم ٠

على أن الأقباط الذين ظلوا على دينهم ، لم يقفوا مكتوفى الأيدى طوال هذا العصر أمام مطالب الخلافة المالية بل قاوموها ، وبدأت المقاومة سلبية فى البداية كما رأينا ، اذ أخذ جماعات من الزراع يهربون من منطقة الى أخرى ، وعمد الولاة الى قمع تلك

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعه تورى) ص ١٥٦ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٨ ٠

الحركة بكل الوسائل واشتدت الحكومة فى مراقبة الزراعة والهجرة كما اهتمت باحياء الأرض الموات · ثم بدأ الأقباط يتركون سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة الخلافة مقاومة ايجابية ، فقاموا فى الوجه البحرى بأول ثورة لهم ضد العرب فى خلافة هشـــام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ على أثر ما قام به عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب من زيادة فى الضرائب زيادة كبيرة ، ونجحت الحكومة فى اخماد تلك الثورة · ولكن ثورات الأقباط تتابعت طوال القرن الثانى الهجرى وشملت ثوراتهم الوجهين البحرى والقبلى وان كان معظمها فى الوجه البحرى ·

وكانت حكومة العرب من جانبها تقابل القوة بالقوة فلم تتوان عن محاربة الثائرين عليها وارغامهم على النزول على ارادتها ، وكان يتبع فى العادة اخماد تلك الثورات تحول جزء كبير من الأقباط الى الدين الاسلامى ·

ونلاحظ أن العرب فى مصر بعـدما زاد عـددهم وأصبحـوا يملكون الأراضى فى البلاد ثاروا ضد الحكومة بسبب الخراج ، ولذا نراهم يشتركون مع الأقباط فى معظم ثوراتهم ضد الأعباء المالية · وكانت آخر ثورات الأقباط وأعظمها فى عصر الولاة تلك الثورة التى حدثت فى بداية القرن الثالث الهجـرى زمن الخليـفة المأمون فى سنة ٢١٦ هـ ، فثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء فى ذلك العرب والأقباط ، وطردوا عمال الحكومة فقدم الأفشين قائد المأمون من برقة لمحاربتهم وانتصر على معظم البلاد الثائرة الا أن أهل البشرود أو البشمور ـ وهم سكان المنطقة الرملية التى تقع فى ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد ـ امتنعوا على الأفشين ، وقد شجعتهم جغرافية منطقتهم على ذلك ؛ اذ كانت تحيط بهم المستنقعات والأوحال التى تعوق حركة الجند · وقد كتب الأفشـين الى الخليفة يعلمه

بذلك فرأى الخليفة أن من الأفضل أن يأتي هو بنفسه لاخماد الثورة في مصر . وقدم الخليفة في بداية سنة ٢١٧ هـ وحاول اخماد الثورة باللين أولا ، فلما لم يستجب الأقباط ركز الخليفة كل قواته ضدهم ، وانتصرت جيوش الخليفة في النهاية ثم غادر الخليفة مصر في صفر سنة ٢١٧ هـ بعد أن مهد أمورها وزار بعض البلدان فيها ، وكانت مدة اقامته بمصر تسعة وأربعين يوما .

وبعد ثورة البشموريين أصبح المسلمون أغلبية في القطر المصرى وعلى الأخص في الوجه البحرى ؛ اذ يظهر أن عددا كبيرا من الأقباط أسلم في ذلك الوقت (١) .

وهكذا نرى أن ثورات الأقباط التي ظلت أكثر من قرن ولاسيما في منطقة الدلتا كان يقضى عليها سريعا ، وكان يتبع اخمادها في العادة تحول جزء كبير من الأقباط الى الدين الاسلامى . ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وانما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة ، وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها .

وهكذا نجد أن القبط في عصر الولاة يغلبون على أمرهم في ثوراتهم ضد العرب ، بحيث يصبح المسلمون أغلبية في مصر منذ سنة ٢١٧ هـ .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

٣ ـ القبائل العربية فى مصر

امتاز العرب على غيرهم ممن فتحوا مصر فى مختلف العصور بأنهم اندمجوا فى الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا ، وكان لهذا الامتزاج أكبر الأثر فى تغلب الثقافة الاسلامية والدين الاسلامى فى وادى النيل .

والمعروف أن الفاتحين العرب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فانهم لم يختلطوا بهم وانما اختطوا لهم مدينة عربية اسلامية فى وسط المحيط المصرى القبطى . وكان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا الى جنب مع الفتوحات العربية ، وذلك رغبة فى انشاء مراكز ادارية وحربية ودينية فى البلاد الجديدة التى فتحها العرب .

وقد ذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بناءها ومساكنها أراد أن يتخذها عاصمة لمصر ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك خوفا من ركوب البحر وحتى لايحول الماء بينه وبين الفاتحين .

والواقع أن الاسكندرية عند فتح العرب لهـا كانت مدينـه يونانية بمعنى الكلمة ، يونانية فى سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن من المنتظر أن يتخذها العرب عاصمة لهم كما أنها مدينـة متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم ·

أما عن كيفية اختيار موقع الفسطاط فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابليون أمر بنزع فسـطاطه (أى خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه ، ولما عاد المسـلمون من الاسكندرية وقالوا : أين ننزل ؟ قال الفساط ، لفسطاطه الذى كان قد خلفه ·

وقال الجوهرى : الفسطاط بيت من شعر · قال : ومنه فسطاط مدينة مصر · وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط · وقال الزمخشرى : الفسطاط اسم لضرب من الأبنية ، والذى عليه الجمهـور أنـه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته ·

على أن الرواية التى يذكرها المؤرخون عن تسمية الفسطاط واختيار موقعها أقرب الى الخيال منها للحقيقة · فقد عرف المصريون القدماء ومن أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقـة المحيطة به وان اتخذ هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة ، اذ يمتاز هذا الموقع بتوسطه بين مصر السـفلى ومصر العليا وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية · وقد عرف العرب كما عرف غيرهم أهمية ذلك الموقع فاختطوا مدينة الفسطاط فى الفضاء الواقع شمالى حصن بابليون · أما اسم فسطاط فنحن نرجع أن أصله غير عربى وأنه مشتق من اللفظ اليونانى ، «فساطن».

ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينى فساتم Fossatum الذى كان يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية ٠

ويذكر المقريزى (١) أن موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذى يقع فى شرقى مصر ، ولم يكن فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع ، فلما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط جامعه واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها ٠

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ قسمت الى خطط أو أقسام ، وسكنت كل قبيلة خطة من الخطط ٠ ومن الخطط من كان يسكنها من هو من اصل فارسى أو رومى (أى يونانى) وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة . اما الاكثرية العظمى فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية ٠

وقد نشأت الفسطاط صغيرة بسيطه فى أول الأمر فبنيت باللبن وكانت الدار من طبقة واحدة ، وما لبثت الفسطاط أن اتسعت بعد ذلك وبنى فيها القصور والحمامات والاسواق وأصبح معظم بنائها بالطوب كما أصبحت الأبنية تتألف من طبقات وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات ٠ وقد أثبتت الحفائر الحديثة فى أطلال الفسطاط أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية ٠

وقد بنى عمرو بن العاص المسجد الجامع فى الفسطاط سنة ٢١ هـ ولما كان هذا المسجد أول جامع بنى فى مصر الاسلامية

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٨٦

فقد عرف باسم تاج الجوامع والجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص . ولم يكن المسجد الجامع مكانا لاقامة الصلوات الخمس وصلاة الجمعة فقط بل كان بمثابة مدرسة دينية كما كان مركزا للقضاء .

وقد ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد فى مصر فى عصر الولاة الى أن بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر فى سنة ١٦٩ هـ فى مدينة العسكر التى اختطها العباسيون فى سنة ١٣٣هـ. وبعد عصر الولاة كثر بناء الجوامع فى مصر وخاصة فى عهد المماليك. على أن جامع عمرو وهو أقدم جامع فى مصر ظل موضع عناية حكام مصر فى عصورها المختلفة . فبالرغم من أن بناءه كان بسيطا جدا فى أول عهد الفتح ، نرى أن ولاة مصر وحكامها فى العصور المختلفة يهتمون بتوسيعه واقامة المنابر والمحاريب له وتزيينه بشتى الزخارف المعمارية ، الى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الاسلامى والعمارة الاسلامية فى مصر كما يبين لنا عناية حكام مصر بأول جامع بنى فيه .

كذلك اختط العرب مدينة الجيزة على غرار خطط الفسطاط . ونزل قوم من العرب الاسكندرية ، على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط وانما كانت « أخائذ » أى من أخذ منزلا نزل فيه .

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا فى مصر ومعظمهم من اليمنية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الاسكندرية . وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب .

ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط ، سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين الاسلامى أم اللغة العربية .

وكان اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق التزواج أو الولاء (١) نادرا فى أول الأمر ، كما كان العرب أقلية ضئيلة فى مصر فى ذلك العهد ٠

والمعروف أن استيلاء العرب على مصر كان فاتحة لهجرات عربية متوالية دامت زمنا طويلا ٠ وقد كانت أضعف هذه الهجرات هجرة العرب أو الجند الذين أتوا مع عمرو بن العاص عند فتح البلاد وكان معظمهم من اليمنية ٠ على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى عصر الولاة كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الأموى أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالخراسانيين والأتراك فى العصر العباسى ، والمعروف أن الجنود كانوا يصحبون معهم أسراتهم ٠

وفى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية فى مصر ٠ ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة فى سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينقل الى مصر بيوتا من قيس أو عرب الشمال وكانوا أقلية بها ، فأذن له الخليفة بذلك وجاء ابن الحبحاب بعدد كبير منهم بلغ حوالى ثلاثة آلاف ٠ وقد أنزلهم ابن الحبحاب بالحوف الشرقى فى شرقى الدلتا وأمرهم بالاشتغال بالزراعة ٠

أى أن العرب فى زمن هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح وهى سياسة الترفع عن الاختلاط

---

(١) المولى : الملك والسيد ٠ العبد . الناصر ٠ الجار ٠ الحليف ٠ المعتق ٠ العصهر ٠ القريب ٠ التابع ٠

والمقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء . اختلاطهم عن طريق العتق والجوار والمصاهرة ٠

بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة ٠ ووافق قدوم هذه البطون القيسية الى مصر فى سنة ١٠٩ هـ قيام ثورة الأقباط التى بدأت فى سنة ١٠٧ هـ ٠ وقد يكون الخليفة أراد بنقل هذه البطون الى مصر والسماح لها بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم ، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط فى هذه الثورات ، أو من يهجر أرضه ، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر ٠

وقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالى ، وكان لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الاسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاة بينهم وبين أهالى البلاد ٠ ولذا يقول المقريزى (١) فى خططه : « ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » ٠

وقد أخذت القبائل العربية بعد ذلك تفد الى مصر وتستقر فى القرى المصرية ٠ على أن ازدياد القبائل العربية فى مصر وان ساعد على تعريب مصر ونشر الاسلام فيها الا أنه سبب كثيرا من الاضطرابات فيها ٠ فمن منازعات قبلية بين القيسية واليمنية ،ومن منازعات بين العرب وأهالى البلاد الأصليين ، فضلا عن أن العرب بمصر كثيرا ما كانوا يشتركون فى المشاكل التى قامت حول الخلافة ٠ كذلك لما أصبح للعرب فى مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج ٠ وقد قامت ثوراتهم من أجل الخراج فى العصر العباسى وتعددت تلك الثورات منذ خلافة المهدى (منذ سنة ١٦٧ هـ) ٠ وكانت آخر ثورات العرب بمصر من أجل

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٦١ ٠

الخراج ، تلك التى قامت فى سنة ٢١٦ هـ والتى اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدوم الخليفة المأمون الى مصر لقمعها ٠

والواقع أن هجرة القبائل العربية الى مصر ثم اختلاط العرب بأهل وادى النيل ، ثم تحول الحكم فى العالم الاسلامى الى ملك استبدادى يعتمد على الفرس ثم الأتراك ٠٠ كان كل ذلك مؤديا الى ضياع هيبة العرب الحاكمين والى اندماجهم فى سلك المحكومين وتغير المركز الذى كان يريده لهم الخليفة عمر بن الخطاب ٠ فالفكرة الأساسية الأولى فى حكومة الامبراطورية العربية كانت تنطوى على أن تكون الدولة العربية حربية تديرها الأرستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون فى مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للأرستقراطية العربية ٠ ولكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلا للأسباب السابقة ، ونظرا لأن الدين الاسلامى نفسه ذو طابع دولى ، وليس دين شعب معين أو أمة معينة ، فكان من السهل بمرور الزمن أن يمتزج المسلمون الجدد بالمسلمين من السلالة العربية ٠ ثم جاء قرار الخليفة المعتصم فى بداية القرن الثالث الهجرى ٢١٨هـ اسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم ٠ ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف ، اذ قامت بعض حركات احتجاج قضى عليها سريعا ٠ ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فاننا نرى فى معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ولكن فى خلال القرن الثالث نجد أن اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى فيكتب فلان الكوفى أو الادفوى أو المصرى الخ ٠٠٠٠

وهذا يدل على أنه فى القرن الثالث الهجرى أصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد · ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين اللهم الا من الناحيه اللغوية والدينية · اذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية ، اضطروا الى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها فكان هذا القرار الذى اتخذه المعتصم ضد العرب مما أفاد الاسلام فى مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية بمصر وقضائها على اللغة القبطية ·

وقد شهدت بداية القرن الثالث الهجرى أيضا القضاء نهائيا على مقاومة القبط فكان من السهل أن تتم فى هذا القرن حركة الاندماج بين العرب والمصريين ·

***

وقد تبع انتشار الاسلام فى مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضا فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب · على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الاسلامى فيها ، وبالرغم من أن الدواوين عربت رسميا فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ ــ ٧٠٦م) الا أن وثائق البردى تدل على أن الحكومة كانت تستخدم العربية واليونانية الى القرن الثانى الهجرى ، بينما كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا بالقبطية ، بل انه وجد ايصال بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية ·

وحين قدم الخليفة المأمون الى مصر وحين أصبح للدين الاسلامى الغلبة فى مصر ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين

المصريين وقد ذكر المقريزى (١) فى كلامه عن المأمون حين قدم الى مصر « وكان لا يمشى أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس » ٠

ولم يبدأ القبط فى ترك لغتهم القبطية الا فى أواخر القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى . فنرى البطرك الملكانى سعيد بن بطريق يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية وذلك فى القرن الرابع الهجرى ٠ وكذلك نرى ساويرس أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها . مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة ٠ وقد بقيت اللغة القبطية بعد ذلك محصورة فى نطاق ضـيق . وما زالت تدرس الى اليوم كلغة من اللغات القديمة ٠ وهناك بعض الألفـاظ العـامية المصرية التى نستعملهـا للآن ترجع الى اللغـة القبطية (٢) ٠

ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين ٠ وهذه ظاهرة تستحق امعان النظر ، لأن تنازل شعب عريق فى المدنية كالشعب المصرى عن لغته واتخاذه لغة شعب لا يوازيه فى الحضارة أمر غير عادى ٠ وقد نقول : ان الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية لغة القرآن ، وقد نذكر أن المصريين اضطروا الى تعلم اللغة العربية لأنها أصبحت اللغة الرسمية للدواوين منذ سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ ـ ٧٠٦ م) ٠ وقد نقول : ان اتصال العرب فى الفسطاط

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨١ ٠

(٢) Dr. Georgy Sobhy bey : The Survival of Ancient Egypt, pp. 65-67.

والجيزة والاسكندرية بالأهلين • واتصـــال كبار الموظفين العرب وأعوانهم فى الريف بأهله كان له أثر فى التعريب • لكن أهم عوامل تعريب مصر كان نزول القبـــائل العربيـــة فى الريـف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا ، مما أدى الى اختلاطهم بالقبط اختلاطا كبيرا ، ومن ثم الى انتشار اللغة العربية فى مصر والى تعريب البلاد • فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى واللغة التركية فى العهد العثمانى لغـة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصرى،فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف الا قليلا ، فلم تنتشر اللغة اليونانية الا فى بيئات خاصة ، وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع • وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون • ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه •

أما العامل الأساسى فى انتشار الاسلام بين القبط فى عصر الولاة فكان العامل المالى والاجتماعى ، وان كانت هناك اضطهادات وارغام على اعتناق الاسلام فقد كانت نادرة • ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة اذا قرأنا ساويرس أسقف الأشمونين وهو الذى لا يشك فى كتاباته فى هذا الصدد والذى لم يكن ليغفل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين •

ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الاسلامى واللغة العربية بل اننا نجد مصر فى أواخر عصر الولاة تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثانى الهجرى • وكان جامع

عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هى الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن · وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى رجال أدب ودين ومؤرخين أنتجوا بالعربية كما لو كانوا أبناءها ، وكان علماء مصر أساتذة لعلماء افريقية والأندلس بوجه خاص ·

وكانت مصر احدى الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن لغتها القومية ورمت بنفسها فى أحضان الاسلام والمدنية الاسلامية · وهى فى ذلك تخالف ايران والهند اللتين لم يقض فتح العرب على لغتهما القومية ، ولم يقض على العقائد الدينية التى وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاما · كذلك لم يمنع اعتناق الأتراك للدين الاسلامى من الاحتفاظ بلغتهم القومية ، بل نرى الأندلس · التى كانت تتمتع بحضارة اسلامية مزدهرة فى العصور الوسطى بعد فتح العرب لها · تغلب على أمرها فى أواخر العصوز الوسطى وتعود ثانية دولة مسيحية الدين أجنبية اللغة · وبينما نرى الشاعر الوطنى « الفردوسى » فى ايران ينظم الشاهنامة بالايرانية الحديثة فى القرن الرابع الهجرى ، نجد رجال الدين الأقباط فى مصر يكتبون فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ويخاطبون أبناء دينهم بالعربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم ·

الباب الرابع

حضارة مصر فى عصر الولاة

١ ـ الزراعة

جاء العرب الى مصر لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها الزراعية وكثيرا ما أظهروا اعجابهم بتلك الخيرات والنعم التى خص بها الله مصر والمصريين ٠ والواقع أن مصر كان لها مكانة خاصة عند المسلمين منذ البداية فقد ذكرت فى القرآن فى عدة مواضع ، كما ذكرت فى الأحاديث النبوية ٠ وقد كانت بعض الأحاديث التى تنسب الى النبى عليه الصلاة والسلام عن « فضائل مصر » نواة لفصول فى هذا الصدد كتبها المؤرخون والمؤلفون المصريون فى العصور الوسطى ، كما ألف بعضهم كتبا قائمة برأسها فيما سموه « فضائل مصر » مثل كتاب « فضائل مصر » لعمر بن محمد بن يوسف الكندى المتوفى فى القرن الرابع الهجرى وهو ابن المؤرخ المشهور الكندى صاحب كتاب « ولاة مصر وقضاتها » ومثل كتاب « فضائل مصر » لابن زولاق المتوفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى ٠

ولا ريب فى أن العرب كانوا يقدرون مصر بسبب خيراتها الوفيرة الناتجة عن الزراعة ٠ ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر

تقدم للفاتحين المال والطعام . وكان القمح أهم ما ترسله مصر الى الخلافة بعد الفتح . واستمرت مصر ترسل القمح الى الحجاز بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق . بل ان عادة ارسال القمح الى الحجاز ظلت حتى بعد أن خرجت مصر عن حوزة الخلافة ، وحتى بعد أن أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى نافست الخلافة العباسية بين القرنين الرابع والسادس الهجرى (٣٦٢ ـ ٥٦٧ هـ) وكذلك بعد أن أصبحت مصر مركزا للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وقد ظلت تلك العادة الى يومنا هذا ، لذا يذكر المؤرخون المسلمون أن من فضائل مصر أنها تمير الحرمين الشريفين وتوسع على أهلهما .

وكانت مصر كما هى الآن تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضراوات والفاكهة ، وتشير أوراق البردى الى أن الكتان كان يزرع بكثرة فى عصر الولاة كما تشير الى زراعة قصب السكر فى مصر وقد نسب الى الامام الشافعى الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى أنه قال : « لولا قصب السكر ما اقمت بمصر » (١) . ولا نعرف أن العرب فى عصر الولاة أدخلوا أصنافا جديدة من المزروعات فى مصر ، أو طرقا جديدة للزراعة والرى غير تلك التى كانت موجودة فى مصر . والواقع أن طريقة زراعة الأراضى فى مصر ظلت كما هى منذ عهد الفراعنة ، وان كانت قد تقدمت نوعا فى عهد الرومان ، حتى أوائل القرن التاسع عشر . وقد كانت الطريقة الشائعة للرى حتى القرن التاسع عشر هى طريقة رى الحياض اللهم الا فى بعض الجهات التى كان يمكن ريها ريا دائما مثلما كان يحدث فى أراضى الحدائق بالفيوم .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ (فصل ذكر الفواكه) .

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترع واقامة الجسور وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم للرى والزراعة وكان يقوم بذلك العمل صيفا وشتاء حوالى ١٢٠٠٠٠ر عامل (١) . ولا نستبعد أن يكون الخلفاء وولاة مصر فى عصر الولاة قد حذوا حذو عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فى هذا الشأن . ويذكر المقريزى (٢) أنــه كان يفرض على كل ناحية مالا معلوما ليصرف فى محل الجسور والمحافظة عليها وأن ذلك بطل فى زمانه .

ونحن لا نستبعد أن يكون العرب بعد الفتح قد جبوا ضريبة الجسور ، وأن ذلك كان استمرارا لما كان قبل الفتح ، اذ كانت تجبى ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور .

كذلك اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فى مياهه ليكون ذلك معيارا صادقا للزراعة والرى والضرائب فى كل عام . على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل فى مصر ، وانما عرفت مقاييس النيل منذ العصور القديمة . ورغم وجود مقاييس للنيل قبل الفتح العربى نرى الخليفة عمر بن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جـديدة وكانت مقسمة على أساس الذراع وكل ذراع ينقسم الى أربعـة وعشرين اصبعا . وقـد بنى عمرو بن العـاص مقاييس بحلوان وأسـوان ودندرة ، وعندما كان أميرا من قبل معـاوية بن أبى سفيان بنى مقياسا للنيل فى الصـعيد . ثم بنى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر مقياسا بحلوان التى اتخذها عاصمة للديار المصرية. وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ .

(٢) الخطط ج ١ ص ١١٠ .

الخراج مقياسا بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياسا بجزيرة الروضة سنة ٢٤٧ هـ ، كان يعرف آنذاك بالمقياس الجديد ٠

وطبيعى أن العرب عملوا على كل ما من شأنه زيادة الانتاج لأن ذلك يكفل لهم كثرة المال وكثرة القمح ٠ وفى عقود ايجار الأراضى الزراعية التى عثرنا عليها بين الأوراق البردية والتى ترجع الى عصر الولاة ، نلاحظ أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطا هذا نصه : « وما بورت فعليك خراجه » (١) ٠ أى أنه يلزم المستأجر بدفع الخراج عن الأراضى التى يتركها دون زرع حتى تصبح أراضى بورا ، وطبيعى ألا يرضى المزارع أن يدفع خراجا عن الأراضى البور التى لا يستفيد منها فكان هذا الشرط يحمل المزارعين على الانصراف الى الزراعة ، وعدم اهمال الأرض ٠ ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم اعفاء الأرض البور من الخراج ٠

وكانت الأراضى بمصر تقاس بالفدادين كما هو الحال الآن ٠ وكان ايجار الأراضى يدفع نقدا وعينا ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الايجار كان يدفع عينا فقط ٠ وكان ايجار فدان القمح يتراوح فى عصر الولاة بين دينار ودينارين ، وأحيانا يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الايجار نصف دينار أو دينارين ونصف (٢) ٠

وقد اهتم الولاة والخلفاء فى ذلك العصر بقمع الحركات والثورات التى كانت تحدث بمصر من وقت الى آخر وبالقضاء على حركة

---

(١) انظر Grohmann : Arabic Papyri. vol. II pp. 45-48.

(٢) Grohmann : Op cit., pp. 32 34. 44. 45. 48. etc.

الهروب حتى لا يسبب ذلك أضرارا بالزراعة نتيجة قلة الأيدى العاملة وترك المزارع • بل ان الخلافة منذ عهد هشام بن عبد الملك اخذت تشجع القبائل العربية على الوفود الى مصر والاشتغال بالزراعة •

فمصر كانت اذا معينا فياضا للأموال والغلال ، ولم تكن الخلافة لتغفل أمرها اذ أن كل ضرر يحيق بها لابد وأنه كان يؤثر من ناحية أخرى فيما تجبيه الخلافة منها •

وحسبنا دليلا على رخاء مصر وازدهار زراعتها فى عصر الولاة ما كتبه النويرى فى الكلام عن فضائل مصر (نهاية الأرب ج١) فقد جاء فيه « وقال سعيد بن عقبة : كنت بحضرة المأمون حتى قال وهو فى قبة الهواء : لعن الله فرعون حين يقول : « أليس لى ملك مصر » فلو رأى العراق !! فقلت : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فان الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضا لم تكن أعظم من مصر وجميع أهل الأرض يحتاجون اليها • وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى ان الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا • وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله الى آخره ، ما بين أسوان الى رشيد الى الشام متصلة لا تنقطع ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر • وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج الى خمار لكثرة الشجر » •

٢ ـ الصناعة

ازدهرت في مصر منذ التاريخ القديم صناعات هامة مثل صناعة البناء والورق والزجاج والنسيج والدباغة ، وصناعة الخشب ، والفنون الدقيقة كالحلى وأدوات الزينة ، وصناعة الزيوت والعطور والفخار . ونلاحظ أن الصناعات التى نشأت فى مصر كانت تعتمد فى معظم الأحيان على المواد الخام المنتجة فى البلاد ، وان كانت البلاد تضطر الى استيراد بعض المواد الخام من الخارج مثل الحديد والخشب والجلود والحرير . وكان حكام مصر المختلفون يشجعون هذه الصناعات ، فلما فتحها العرب وجدوا بها صناعة مصرية راقية وأساليب فنية زاهرة . على أن العرب الذين أتوا الى مصر لم يكونوا من البدو الذين لا حضارة لهم ولا فن وانما كان معظمهم من العنصر اليمنى الذى اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة ، ولو أن هذه الحضارة كانت قد اضمحلت عند قيام الاسلام ، الا أنه كان عندهم استعداد لقبول التمدن والتحضر وكان عندهم ملكة واسعة فى التصور والذوق الفنى نتيجة اتصالهم الدائم بالشعوب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والأحباش والمصريين

فى أثناء رحلاتهم للتجارة · لذا نجد أنه بعد فتح مصر نشأت صناعة اسلامية مصرية وفن اسلامى مصرى كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وان كان العرب قد أفلحوا فى طبعه بطابع دينهم وفى اظهار شخصيتهم فيه بحيث تميزت الصناعات والفنون الاسلامية عما كان موجودا فى مصر قبل الفتح ·

وكان معظم الصناع فى مصر فى عصر الولاة من المصريين سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم · فالعرب فى أول ذلك العصر كانوا لا يتدخلون فى الصناعات وغيرها من المهن ، وانما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب · وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالى ويملكون الأراضى ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع فى مصر · ولا شك فى أن كثيرا منهم اشتغلوا بالصناعه وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم باسقاطهم من الديوان ، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على اخوانهم من العرب ·

(ا) البناء

عرف المصريون منذ القدم بتقدمهم فى صناعة البناء وفى فن العماره وتشهد بذلك آثارهم فى مختلف العصور · فلما جاء العرب اختطوا مدينة الفسطاط وبنوا فيها المسجد الجامع الا أن أبنيتهم كانت بسيطة جدا وذلك بحكم عيشة الخشونة التى كانت تغلب عليهم فى أول الأمر · ثم ما لبث الرخاء أن طغى عليهم وتدفقت الثروة اليهم من كل جانب فبدأوا ينزعون عنهم عيشة البساطة ، وينعمون فى حياتهم وفى مساكنهم ، وأسرعوا الى تذوق الحضارة الراقية والترف والنعيم · وبدا ذلك واضحا جليا فى العمارة الاسلامية فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية ولما يمض على الفتوحات

الاسلامية قرن من الزمان . ولا زالت بعض العمائر التى بنيت فى ذلك العهد المتقدم باقية الى اليوم مثل قبة الصخرة التى بناها فى بيت المقدس عبد الملك بن مروان ومثل الجامع الأموى الذى بناه فى دمشق الوليد بن عبد الملك وأسرف فى تزيينه .

تقدمت العمارة الاسلامية فى جميع أنحاء المملكة دون استثناء ومن بينها مصر . فسرعان ما نمت الفسطاط ودب فيها العمران والحضارة وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما بنيت الدور العالية بعد أن كان البناء بسيطا . ونكرر هنا أن العرب لم يشتغلوا فى أول الأمر بالصناعة فى مصر ، وانما قام ببناء العمارة الاسلامية فيها معماريون وبناءون من أهالى البلاد وصبغها الفاتحون بصبغة دينهم . ولا شك فى أن العمارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر ، وقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيرا من الأعمدة والتيجان ، استخدموها فى مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية فى جامع عمرو . ونجد كثيرا من أعمدة الكنائس الرخامية فى معظم المساجد ، ولكن يجب ألا يتطرق الى أذهاننا أن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء فى المساجد وخاصة فى العهد الأول للاسلام ، وانما كان من السهل أن يتخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى . وقد اتخذ العرب كثيرا من كنائس النصارى مساجد لهم بعد أن غلبوا على القرى فى عهد الخليفة المأمون ، وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الاسلام وازدياد عدد المسلمين فضلا عن أنه لم يكن جديدا فى التاريخ ، فانه لما أصبحت المسيحية فى القرن الرابع للميلاد الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية حول المسيحيون فى مصر المعابد والهياكل الى كنائس بأن نقشوا الصلبان على أعتاب أبوابها واعمدتها ، وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشا على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد

المسيح والرسل والقديسين ، وبنوا مذابح لاقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة الى يومنا هذا بأغلب معابد الوجه القبلى · كما نرى فى بعض هذه الكنائس والأديرة أحجارا انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط فى أبنيتهم الجديدة (١) ·

ومهما يكن من شيء فان العمارة الاسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر المعمارية ، فيظن كثير من العلماء أن محراب الجامع مأخوذ عن « الحنية » التى توجد فى صدر الكنيسة الى جهة الشرق ، وأن مآذن الجوامع الاسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس · كذلك أخذ المسلمون عن القبط فى زخرفة المبانى كثيرا من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المبانى بطبقة من الجص (٢) ·

ونعرف من الأوراق البردية ومما ذكره المؤرخون أن العرب لم يستخدموا العمال المصريين فى بناء أبنيـة مصر فقط بل كثيرا ما استخدموهم فى الأبنية التى أنشئت فى غير مصر · فقد اشترك مهرة العمال والبنائين المصريين فى العمل بالجامع الأموى فى دمشق وفى المسجد الأقصى فى بيت المقدس وفى قصر الوليد بن عبد الملك فى دمشق وفى بناء مسجد المدينة المنورة · وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين فى فن البناء والعمارة فمصر كانت تابعة للخلافة الاسلامية سياسيا ولابد أنها أثرت وتأثرت بالخلافة من الناحية الفنية أيضا ·

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية ص ٨ وما ذكره من مراجع ·

(٢) المرجع نفسه ص ٩ ـ ١٠ ·

(ب) المنسوجات

من الصناعات التى ازدهرت بمصر فى عصر الولاة صناعة المنسوجات صوفية كانت أو تيلية أو حريرية أو قطنية · ولم تكن هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التى اشتهرت بها مصر فى عصر الولاة شيئا أحدثته الخلافة ، وانما كانت مما اشتهرت به مصر منذ القدم · فاستمرت صناعة النسج زاهرة فى عصر الولاة واستغلتها الخلافة كثيرا لسد حاجاتها المختلفة · كما أن القائمين بتلك الصناعة كانوا من المصريين ، شأنهم فى ذلك شأن أصحاب الصناعات الأخرى فى ذلك العصر ، الا أن الأقباط حملوا لواء هذه الصناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد . ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطى (١) · ولا بد أن هذه التسمية نسبة الى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى ميدان النسج · كذلك يذكر ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان والذى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجرى أن ناسجى الثياب فى دمياط وتنيس من القبط · وعلى كل حال فان المراكز الرئيسية لصناعة النسج فى العصر الاسلامى كانت فى أغلب الأحيان المدن التى اشتهرت بالنسج فى العصر القبطى · وكان عدد كبير من سكان تلك المدن لا يزالون على دينهم المسيحى · وقد كانت صناعة النسج زاهرة فى عهد الفراعنة ثم تقدمت تقدما كبيرا فى العصر القبطى فكانت مصر تصدر الى بيزنطة والى بابوات رومة كثيرا من الأقمشة النفيسة التى كان يذهب جزء كبير منها الى الكنائس المسيحية ·

---

(١) الأزرقى : اخبار مكة ج ١ ص ١٣٧ و ١٦٨ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١ ·

أما فى العصر الاسلامى فقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها تطورا منتظما غير فجائى . وكان العرب منذ الفتح يميلون فى الزخرفة الى العناصر الهندسية والنباتية لكراهيتهم تصوير الانسان والحيوان . وكان هذا الميل نفسه قد دب الى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية فى زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة الى حد بعيد . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة فى ارضاء الفاتحين وانتاج التحف الفنية التى تتفق ومزاجهم وعلى كل حال فان صناعة النسج لم تطبع فى مصر بطابع اسلامى ظاهر الا فى العصر الفاطمى . وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات فى العصر الفاطمى اسلامية بحتة لم تخل فى زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها فى وادى النيل (١) .

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسج الكتان لوفرة زراعته. أما القطن والحرير الخام فى مصر فاننا نرجح أنهما لم يكفيا الاستهلاك المحلى والتصدير وأغلب الظن أن مصر استمرت فى استيرادهما كما كانت الحال قبل الفتح العربى . أما الصوف فان مصر كانت تنتج منه ما يكفى حاجتها .

وكانت الاسكندرية تشتهر بصناعة النسج حتى قيل ان الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها وتحمل الى أقطار الأرض . وكان يصنع فى الاسكندرية نوع فاخر من الثياب المصنوعة من الكتان يقال لها الشرب . كذلك اشتهرت تنيس فى الوجه البحرى بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان يحاك بها أيضا الثياب المعروفة بالشرب . والمعروف أن معظم أهل تنيس كانوا يشتغلون بالنسج ،

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٠ ، بعض التاثيرات القبطية ١٢ -١٣.

ومما يدل على عظمة هذه الصناعة فى تنيس أنه كان يصنع بهـا للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة (١) غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار • وكان يصنع فى تنيس أيضا ثياب رقيقة وصفها الكتاب المسلمون بأنها « مهلهلة النسج كأنها المنخل » (٢) وكانت تسمى بالقصب وكان هذا القصب يلون ، ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثل الذى ينسج فى تنيس وكان يعمل منه عمـــائم للرجال وملابس للنساء • أما القصب الأبيض فكان ينسج بدمياط • وكانت دمياط تقارب تنيس فى شهرتها فى النسج ، فكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب • وقيل : ان الثياب الكتانية التى كانت تعمل بها ربما بلغ ثمن الثوب منها ألف دينار ونحوه اذا كانت مذهبه وما لـم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوهما •

وقد اشتهر فى النسج أيضـا من بلدان مصر السفلى شطا ودميرة وتونة وكلها قريبة من تنيس ودمياط •

واشتهر فى النسج من بلدان مصر الوسطى والعليـا مدينة البهنسا فكان ينسج بها الصوف والقطن • واشتهرت القيس أيضا بثياب الصوف وأكسية المرعز (٣) التى لم يكن لها مثيل • والقبس كما نعرف ، على مقربة من البهنسا من أعمال مديرية المنيا • وكان هناك مصـــانع للنسج فى الأشـــمونين وأسيوط وأخميم واهناس وبوصير قريدس (٤) وغيرها من بلاد الوجه القبلى •

---

(١) السدى من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مد من خيوطه • واللحمة ما نسج عرضا من الثوب وهو خلاف سداه •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩٠ •

(٣) المرعز اللين من الصوف •

(٤) بوصير قريدس أو قوريدس من أعمال الأشمونين •

أما نسج الحرير فقد ازدهرت صناعته بمصر فى عصر الولاة ، ومن المدن التى قامت فيها هذه الصناعة مدينة دبيق · وهناك أيضا منسوجات حريرية من أخميم محفوظة فى المتحف البريطانى فى لندن نسجها الصناع الأقباط وترجع الى هذا العهد الذى نتحدث عنه أو بعده بقليل (١) ويتجلى فيها المميزات القبطية والعربية · وقد عثر فى أخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان ، ولسنا نعرف هل المقصود هنا مروان ابن الحكم أو مروان ابن محمد ·

وكانت المنسوجات تنسب فى العادة الى البلاد التى تعمل فيها فيقال : الثياب الشطوية والقيسية ويقال التنيسى والدمياطى الخ ··· كذلك كان للكتابة شأن فى صناعة المنسوجات فى العصر الاسلامى · وكان من العادات المعروفة أن يكتب على الثوب اسم الشخص الذى أمر بعمله · أما زخارف المنسوجات المصرية بين الفتح العربى وقيام الدولة الفاطمية فكانت لا تزال محتفظة بقسط وافر من روح الزخارف فى المنسوجات القبطية وتعتبر عصر انتقال بين الطراز القبطى والمنسوجات ذات الزخارف الاسلامية الخالصة فى العصر الفاطمى ·

ولم يكن الفضل فى اتساع نطاق فن النسـج فى مصر فى العصور الوسطى راجعا الى الأهالى فقط وانما كان يرجع الى الحكومة أيضا ، فقد كانت تسيطر على مصانع النسج · والواقع أن هذه السيطرة نظام لم ينشئه المسلمون فى مصر بل أخذوه عن بيزنطة ، فالراجح المحتمل أن يكون البيزنطيون قـد أنشأوا فيهـا مصانع حكومية للنسج الى جانب المصانع الأهلية ، ولما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام ، وعرفت مصانع النسج باسم الطراز · ولفظ طراز

(١) Butler . Islamic Pottery, p. 31.

مشتق من الفارسية « ترازيدان » و « نراز » بمعنى التطريز وعمل المدبج broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير او السلطان ورجال الحاشية لا سيما اذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة • واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى فى العربية والفارسية الى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه هذه المنسوجات (١) • على أن كلمة « طراز » استعملت فى معان أخرى مثل الدلالة على أى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء كان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو كان محفورا فى الخشب ، كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى (٢) •

ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الاسـلامية كسورية والعراق وايران وآسيا الصغرى وأسبانيا وجزيرة صقلية • ويظهر أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية ، الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل الا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ، والثانى طراز العامة وكان يتبع أيضا بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يعمل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب • وقد كتب على بعض المنسوجات التى عثر عليها والتى ترجع الى عصر الولاة أنها صنعت فى طراز الخاصة وعلى البعض الآخر أنها صنعت فى طراز العامة •

وقد عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة التى كانوا يتخذونها ملابس لهم أو خلعا يخلعونها على كبار رجال دولتهم • وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٤ •

(٢) أدولف جرمان : أوراق البردى العربية ج ١ ص ٣ ـ ٤ (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن) •

الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان . وكانت الكتابة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية وكثيرا ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وكان الغرض من هذه الكتابات الملكية على الأقمشة بيان الأمير الذى عملت باسمه أو الشخص الذى خلعت عليه .

وقد عثر على قطع منسوجات صنعت فى مصر وكتب عليها أسماء الخلفاء العباسيين . فهناك قطعة نسيج صنعت للخليفة المهدى العباسى فى طراز تنيس سنة ١٦٢ هـ وكتب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم يصنع فى طراز تنيس على يدى الحكم ابن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » (١) وهناك قطعة صنعت فى طراز تونة سنة ١٩٠ هـ للخليفة هارون الرشيد (٢) كما صنعت له قطعة أخرى فى سنة ١٩٣ هـ (٣) .

وقد عثر أيضا على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين (٤) ولا نعرف متى صنعت . وهناك قطعة صنعت للخليفة المأمون فى سنة ٢٠٦ هـ (٥) . كما عثر على قطعة أخرى صنعت لنفس الخليفة فى طراز الخاصة سنة ٢١٦ هـ (٦) . وهناك قطعة صنعت للخليفة المستعين بالله فى سنة ٢٥٢ هـ (٧) . وأخرى

---

(١) Répertiore Chronologique d'Epigraphie Arabe, t. I. p. 35.

(٢) op. cit., p. 62

(٣) op. cit., p. 68.

(٤) op. cit. ,p. 76

(٥) op. cit., p. 115.

(٦) op. cit., p. 165.

(٧) op. cit., t II. p. 122.

صنعت فى طراز الخاصة بمصر فى سنة ٢٥٤ هـ لأمير المؤمنين (١) وهو اذ ذاك المعتز بالله ٠

وقد عنى الخلفاء أيضا منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة من المنسوجات النفيسة التى كانت تصنع بها ٠ فيذكر الأزرقى (٢) أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطى من بيت المال ، وكان يكتب الى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده . فلما كان معاوية بن أبى سفيان كساها كسوتين كسوة عمر القباطى ، وكسوة ديباج ٠ فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان ٠

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنويا الى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة وحتى بعد أن استقلت عنها مصر كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنويا . بل ان ارسال كسوة الكعبة من مصر الى مكة كان يشير الى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الاسلامى كله وذلك منذ القرن الرابع الهجرى ٠

(ج) الورق

اشتهرت مصر فى عصر الولاة بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم ٠ وشهرة مصر فى صناعة الورق من البردى شهرة قديمة منذ عهد الفراعنة ٠ وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة كانوا

---

(١) Op. cit., t. II, p. 138.

(٢) اخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ٠

يعتمدون على مصر . والمعروف أن صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت في مصر حوالى القرن الرابع الهجرى ، وقد حل محل ورق البردى الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند وفى الصين . والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل الينا ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ . وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عصر الولاة تقريبا تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع فى مصر من المصريين أهل البلاد ، وكان جلهم أو كلهم فى أول عهد الفتح من الأقباط . والى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثامن الميلادى كان الطابع الذى يطبع على الورق يشمل هذه الكلمات : « الأب والابن وروح القدس » ومع أن ذلك الطابع استبدل بعد ذلك بما يتفق والدين الاسلامى ، الا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة (١) .

(د) الخشب

مهر المصريون منذ عهد الفراعنة فى صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب فى مصر . وبالرغم من أن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه الا لأعمال النجارة البسيطة ، مثل شجر الجميز والسنط والزيتون والسرو والبندق . وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج وغيرها من أنواع الخشب المتين . وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب فى حالة جيدة . وقد ظلت لمصر السيادة فى الحفر على الخشب وصناعته حتى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى .

(١) Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t, 2, p. 147 .

وكما خلف لنا الفراعنة التماثيل الخشبية النادرة ، مثل تمثال شيخ البلد وغيره من التماثيل ، نرى أن الفن القبطى ورث مهارة قدماء المصريين فى صناعة الخشب ونقش الزخارف عليه ، وقد نطورت هذه الصناعة على يد النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطى ، فازدادت صناعتهم جمالا ، وزاد انتاجهم كثيرا ٠ وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضا وأتقنها الكثير منهم (١) فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة فى يد الأقباط كما كانت سياستهم ٠ وقد وصلت الينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف ، مستعملة فى الأبنية أو فى قطع الأثاث ٠ وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة مع نطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة اسلامية ٠ وبعض القطع المذكورة لا يكاد يتميز عن القطع القبطية الا بما عليه من كتابات عربية (٢) ٠

ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية ، كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا عنهم أيضا الكرسى الذى يحمل عليه المصحف والذى يعرفه القبط باسم منجلية (أى محل الانجيل) ٠

(هـ) الخزف والزجاج والمعادن

اشتهرت مصر فى هذا العصر بصناعة الخزف ٠ وقد ظل صناع الخزف فى مصر محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة كما تأثروا بالفن البيزنطى من حيث النماذج

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن . بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ ــ ١٤ ٠

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ ــ ٩٣ وما ذكره من مراجع . بعض التأثيرات القبطية ص ١٤ ٠

والزخرفة. وتدل التحف الخزفية التى ترجع الى عصر الولاة على أن طلاء الخزف بالدهان كان متقنا حينذاك ، كما أن الخزف ذا البريق المعدنى كان معروفا وان كنا لا نعرف تماما هل نشأت صناعة هذا النوع من الخزف فى مصر أو نقلت اليها من ايران أو العراق .

وكانت صناعة الزجاج مزدهرة فى مصر منذ العصور القديمة وكان مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية . ولم تهمل هذه الصناعة فى عصر الولاة فانه فضلا عن عمل الأوانى والأوعية الزجاجية والخواتم والأختام التى كان يطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة . (١) كان المصريون لا يزالون محتفظين بمعظم ما عرفه أجدادهم من أسرار صناعة الزجاج .

وكانت صناعة المعادن مزدهرة فى العصر الفرعونى ، واحتفظ القبط بالتفوق فيها ، والراجح أنهم نقلوها الى تلاميذهم من الصناع العرب ولكننا لا نعرف تماما أية آثار معدنية مصرية من عصر الولاة. وقد عثر فى أبى صير الملق التى تقع فى مركز الواسطى على ابريق من البرونز وهو محفوظ الآن فى متحف الفن الاسلامى فى القاهرة وينسب هذا الابريق الى الخليفة الأموى مروان بن محمد ، ولعل هذا الابريق من صناعة القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة ولكنه يتبع الطراز الساسانى فى الصناعة والزخرفة .

أما النقود فقد كان الولاة فى مصر يتخذون منها ما تتخذه عاصمة الخلافة ، ولكن بعض قطع السكة كانت تضرب فى مصر .

ومن الصناعات الشعبية التى ازدهرت فى مصر منذ عصر الولاة صناعة شواهد القبور . وكانت هذه الشواهد فى البداية بسيطة من الحجر والرخام ، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجيا حين

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ١١٧ ـ ١١٨ .

دخلت الزخرفة على الخط الكوفى الذى ظلت تكتب به الى نهاية العصر الفاطمى ·

والآن وقد استعرضنا أهم الصناعات والفنون التى اشتهرت بها مصر فى ذلك العصر نرى من الواجب علينا أن نقول ان الولاة من قبل الخلفاء شجعوا هذه الصناعات المختلفة وعضدوا الصناع المصريين الذين توارثوا هذه الصناعات المختلفة منذ أقدم العصور ، والذين كانوا يفوقونهم من غير شك فى كافة مظاهر الحضارة · وقد ظل العرب لا يتدخلون فى هذه الصناعات ولا يشاركون المصريين فيها حتى عهد المعتصم على الأقل حين غير العرب ما بأنفسهم وتركوا الجندية وأصبحوا يعيشون فى مصر كالمصريين ·

٣ ـ التجارة

يتطلب النشاط الزراعي والصناعي نشاطا فى التجارة أيضا ٠ وان كانت مصر قد نشطت في التجارة فلم يكن ذلك راجعا الى تقدم الزراعة والصناعة فقط ، وانما يرجع الى موقع مصر الممتاز بين قارات افريقيا وأوربا وآسيا ٠ وقد ظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافى العالمى منذ عهد الاسكندر المقدونى أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة ٠ وظلت مصر منذ عهد الاسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى فلم تكتف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج اليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب فكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية الى الأسواق الغربية وبالعكس ٠ وهكذا كانت التجارة تلعب دورا هاما فى حياة مصر الاقتصادية ٠

ولم يغير الفتح العربى الدور التجارى الذى لعبته مصر منذ القدم ، فكما اهتم العرب باستغلال موارد البيئة المحلية بمصر ،

اهتموا أيضا باستغلال الموقع الجغرافى العالمى لمصر • وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (فى القرن ٩ هـ و ١٥ م) هو طريق البحر الأحمر • فقد كان هذا الطريق يقلل ، الى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى •

ورغم الصعاب التى تكتنف الملاحة فى البحر الأحمر فانه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة وللمواصلات بين الشرق والغرب • وقد زاد فى أهميته فى العصر الحديث حفر قناة السويس التى تصل بينه وبين البحر الأبيض المتوسط •

ونلاحظ أن التجارة الشرقية كانت تنتهى فى الغالب عند ميناء رأس بناس أو القصير أو أبى شعر على البحر الأحمر • ومن هذه الموانى تتجه التجارة عن طريق وديان صحراء مصر الشرقية الى قفط على النيل وتتخذ بعد ذلك طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط • وأحيانا كانت السفن التجارية تواصل السير فى البحر الأحمر الى القلزم وهى السويس الحالية، ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرا تالمرة ووادى طميلات ، تلك القناة التى اهتم بحفرها الفراعنة ثم البطالسة والرومان ، وبعد ذلك تصل السفن حتى الاسكندرية • وقد اهتم المصريون ، أو الذين حكموا الشعب المصرى فى العصور المختلفة منذ الأزمنة القديمة بالسيطرة على الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة ، وكثيرا ما دفعتهم هذه الأهداف الى ضم الشام ، للسيطرة على الطرق التجارية ولتأمين الحدود المصرية • كذلك اهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة باصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة

بين البحر الأحمر والنيل ، وباقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبانشاء الموانى على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر ، الى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة ٠

وقد زاد نشاط مصر التجارى بعد فتح العرب لها نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر وبلاد المغرب وسوريا وفلسطين وبلاد العرب أصبحت كلها جزءا من امبراطورية واحدة ٠

وقد فطن المؤرخون المسلمون الى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها الى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل الى الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الافرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله الى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن »(١)

وقد اهتم الخليفة عمر بن الخطاب باعادة حفر القناة النيلية التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى الفسطاط ، وكانت هذه القناة قد اهملت قبل الفتح العربى حتى أصبحت غير صالحة للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى ٠ وكان غرض عمر بن

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٨ ٠

الخطاب من اعادة حفر القناة هو تسهيل الغلال والطعام من مصر الى الحجاز ، وبالتالى فقد أفاد حفرها التجارة والتجار ، وقد سميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة الى عمر بن الخطاب وأهمل شأن هذه القناة بعد عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) الا أن الطريق الرئيسى الذى كان يسلكه التجار طوال عصر الولاة ظل عن طريق القلزم وبرزخ السويس ومنها الى الفرما على البحر الأبيض المتوسط بطريق القوافل ، أو من السويس الى النيل على ظهر القوافل ثم تسير التجارة فى النيل حتى تصل الى الاسكندرية ٠

وكان طريق السويس أو القلزم أكثر ارتيادا فى عصر الولاة عن الطريق الآخر الذى يسير من موانى البحر الأحمر الى النيل عن طريق وديان الصحراء الشرقية فى الوجه القبلى ٠

ويؤيد كلامنا هذا ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة (١) عن التجارة فى أواخر القرن الثالث الهجرى ٠ فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والصمور (٢) والسيوف ، ويركبون من فرنجة (٣) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما

---

(١) كتاب المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، والدكتور زكى محمد حسن الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ ـ ٩ ٠

(٢) السمور حيوان برى يشبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر مائل الى السواد يتخذ من جلده فراء ثمينة ، وربمااطلق السمور على جلده والجمع سمامير ٠

(٣) يقصد بفرنجة هنا فرنسا ٠

خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجدة (١) ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة ، ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض » .

ويقال ان عمرو بن العاص فكر فى حفر قناة تصل ما بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط رأسا . ويقال أيضا ان الخليفة هارون الرشيد فكر فى ذلك الا ان ذلك المشروع لم يخرج عن حيز التفكير وفى ذلك يقول ابن خلدون (٢) : انه « مازال الملوك فى الاسلام وقبله يرومون شق ما بين البحرين الا أن ذلك لم يتم » ولم يتم تنفيذ تلك الفكرة الا فى العصر الحديث حين تم حفر قناة السويس .

ولم يكن فتح العرب لمصر سببا فى قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب بل ظلت مصر طريقا للتجارة بين الشرق والغرب معا . وكذلك لم تفقد الاسكندرية مكانتها التجارية العالمية التى كانت لها قبل الفتح ، وان كانت شهرة الاسكندرية قد تضاءلت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد التجارية الا أنها احتفظت رغم ذلك بمركزها التجارى الهام .

---

(١) الجار كانت ميناء المدينة المنوره . أما جده فهى ميناء مكة .

(٢) المقدمة ص ٣٩ (المقدمة الثانية فى قسط العمران من الأرض) .

وطبيعى أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضا مسلكا للتجار فى ذلك العصر لأن الخلافة كانت تهتم بعمارة هذه الطرق وبالعناية بها وبتوفير الراحة فيها • فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحة السفن كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضا للحج • وكذلك كان الطريق الصحراوى بين البحر الأحمر والنيل فى الوجه القبلى مسلكا للتجار والحجاج • وكان هناك طريق برى يرتاده الحجاج بكثرة وهو طريق أيلة التى كانت عند موضع العقبة الحالية • فكان الحجاج يسيرون من القلزم الى أيلة وبعدها الى الحجاز وكانت أيلة ملتقى الناس والتجارة ، وكانت بلاد الحجاز نفسها ملتقى للحجاج والتجار فكانت البضائع الشرقية تباع الى الحجاج كما انها كانت تصل الى أسواق الغرب بواسطة التجار المصريين الذين يرافقون الحجاج فى عودتهم الى مصر بالطريق البرى حول خليجى البحر الأحمر ، أو بواسطة التجار السوريين الذين يحملون هذه البضاعة فى اتجاه دمشق •

أما طرق البريد : فأولهـا الطريق المعروف الذى أتت منه الجيوش المغيرة على مصر فى العصـور المختلفة مثل جيوش قمبيز والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص • وهذا الطريق يمر بالرملة بفلسـطين ثم بمدينـة غزة ورفـح والعريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط • وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط الى الاسكندرية ثم الى برقة وافريقية وبلاد المغرب وثالث يخرج من الفسطاط الى المغرب دون أن يمر بالاسكندرية ولكنه يلتقى بالطريق الذى يخرج من الاسكندرية فى برقة •

كذلك كانت مصر تتبادل التجارة فى عصر الولاة مع النوبة والسودان وأواسط أفريقية ،وكانت علاقة مصر التجارية مع الجنوب اما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق النيل عند أسوان • وقد مر بنا أنه منذ الفتح العربى كانت هناك اتفاقية بين مصر والنوبة

عرفت بالبقط كان من أهم نصوصها أن تستورد مصر الرقيق من النوبة وتصدر اليها القمح والعدس والحبوب ·

ولا نعرف تماما ما الذى كانت تصدره مصر فى ذلك العصر وما الذى كانت تستورده ، لكننا نرجح فى الغالب أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، كانت تصدر جانبا من القمح والحبوب بالاضافة الى ما كانت ترسله سنويا الى الحجاز· ولا نستبعد أن مصر كانت تصدر الكتان فى ذلك العصر لوفرة زراعته بها فضلا عن الثياب الكتانية كما أننا نرجح أن أهم ما كانت تستورده مصر هو الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن · ويظهر أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى ذلك العصر أيضا اذ كان هناك سوق للرقيق بمصر فى الفسطاط منذ أول عهد الفتح ·

٤ ـ الحركة العلمية

تركزت الحركات العلمية فى كافة الأمصار الاسلامية فى صدر الاسلام فى الناحية الدينية ، وكان أكثر العلماء الذين ظهروا اذ ذاك علماء دين • أما العلوم الدنيوية والفلسفية فقد كان شأنها ضعيفا فى ذلك العصر وان كانت قد بدأت فى النمو •

والمعروف أن الصحابة تفرقوا فى كافة البلدان التى فتحتها الجيوش الاسلامية ، بل انضم كثير منهم الى الجيوش التى فتحت تلك البلدان ، وربما تعمد الخلفاء تفريقهم ليعلموا أهلها الدين الاسلامى • وقد اشترك فى فتح مصر كثير من الصحابة ، وأخذ الصحابة يفدون اليها بعد الفتح وشجعهم على ذلك ما رأوه من وفير الخيرات وسهولة العيش • وأخذ العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الاسلامى ، وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار •

وكان أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله ابن عمرو بن العاص الذى يعتبر بحق مؤسس مدرسة مصر

الدينية · والمعروف أن عبد الله بن عمرو أسلم قبل أبيه وكان فاضلا عالما قرأ القرآن والكتب المتقدمة · وقد استأذن عبد الله ابن عمرو النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له (١)·

ويذكر المؤرخون أن لأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قرابة مائة حديث · وقد توفى عبد الله بن عمرو فى مصر فى سنة ٦٥ هـ حينما قدم مروان بن الحكم الى مصر لاستخلاصها من عمال ابن الزبير ·

ولم يستطع أحد أن يخرج فى جنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان (٢) ·

وقد أخذ عن عبد الله بن عمرو بن العاص كثير من أهل مصر وكانوا يكتبون عنه ما يحدث ·

وان كان عبد الله بن عمرو هو المعلم الأول فى مصر فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره من الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا اليها عقب الفتح · وسرعان ما أصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا فى الدولة الاسلامية · وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين اليها ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم فى أحكامه وكافة أموره · فمثلا نرى عمر بن الخطاب يبعث الى أهل مصر حبان بن أبى جبلة ليفقههم (٣) ويبعث الخليفة عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة الى مصر ليعلمهم السنن (٤) ·

---

(١) انظر ابن عبد الحكم · فتوح مصر (طبعة نورى) ص ٢٥٤ . ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٧ ص ١٨٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر ، الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٢ ·

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٨ ·

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ ـ ٨٢ ·

(٤) المرجع نفسه ص ١١٩ ·

وقد تتلمذ على أيدى الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم .
ونلاحظ أن أكثر حملة العلم فى عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم فى الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم فى تلقى العلم عنهم حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا ، وأكثرهم من الموالى وأبنائهم . ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال : رجلان من الموالى ورجل من العرب ، فأما العربى فجعفر بن ربيعة ، وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر . وأظهر بعض العرب انكارهم ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : « ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون ! » .

وقد اشتهر بمصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين. وممن اشتهر بها يزيد بن أبى حبيب وهو أحد الثلاثة الذين فوض اليهم عمر بن عبد العزيز أمر الفتيا،وكان يزيد فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة ٥٢ هـ بمصر وقد أخذ عنه عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون وتوفى يزيد بن أبى حبيب بمصر فى سنة ١٢٨ هـ . ومن علماء مصر ومحدثيها وفقهائها أبو عبد الرحمن عبد الله لهيعة المصرى المتوفى سنة ١٧٤ هـ . وقد ولى ابن لهيعة قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ ـ ١٦٤ هـ) وترك لنا ابن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة للآن ، وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج .

ومن أشهر علماء مصر وأئمتها ومحدثيها فى صدر الاسلام الليث بن سعد المصرى المتوفى سنة ١٧٥ هـ . وكان الليث يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر وقد اشتغل بالفتوى فى زمانه ، وكان يعتبر كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها فى

عصره بحيث أن القاضي والنائب كانا من تحت أمره ومشورته ٠ وقيل : ان الامام مالك كتب اليه من المدينة « بلغني أنك تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » فكتب اليه الليث ابن سعد : (قل من حرم زينة الله) ٠ وكان الامام الشافعي يتأسف على فوات لقياه ٠ وتذكر الروايات أن الشافعي قال : « كان الليث أفقه من مالك الا أنه ضيعه أصحابه » ٠

ومن أقدم علماء الحديث في مصر أيضا عبد الله بن وهب ابن مسلم المصري المتوفي سنة ١٩٧ هـ وقد رحل ابن وهب الى الامام مالك وصحبه ، وهو صاحب كتاب « الجامع في الحديث » وقد عثر على نسخة بردية من هذا الكتاب ترجع الى القرن الثالث الهجري ٠

والمعروف أن أصحاب الكتب الستة المعتمدة في علم الحديث وهم البخاري ، ومسلم وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة قد زاروا مصر فيما زاروه من العواصم الاسلامية حوالي القرن الثالث الهجري ، واعتمدوا على رواية كثير من المصريين ، وكان أحدهم وهو النسائي صاحب « السنن » على صلة وثيقة بمصر فقد عاش فيها فترة طويلة من عمره ٠

وكان للمصريين شأن واضح في علم القراءات ، أي العلم الذي يبحث في أساليب قراءة القرآن وتهجي كلماته وعدد آياته . واعجازه وبلاغته ، وقصصه وتاريخ التنزيل ٠ ومن علماء مصر المشهورين حينذاك ورش المقرئ واسمه عثمان بن سعيد المصري الذي تحدر من أصل قبطي وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وقد لقب بورش لشدة بياضه ، والورش شيء يصنع من اللبن ، وقيل بل ولقبه ورشان وهو طائر معروف ٠ وقد انتهت اليه رياسة القراء

بالديار المصرية وكان ماهرا فى اللغة العربية وتوفى سنة ١٩٧ هـ (١) ٠

ومن أئمة القراءات فى مصر أيضا أبو يعقوب الأزرق يوسف ابن عمرو المصرى وقد لزم أبو يعقوب ورشا مدة طويلة وأتقن عنه الأداء وخلفه فى الاقراء بالديار المصرية وانفرد عنه بتغليظ اللامات وترقيق الراءات ٠ وتوفى أبو يعقوب حوالى سنة ٢٤٠ هـ (٢) ٠

وقد شعر كثير من التابعين فى الأمصار المختلفة بضرورة الانتقال من جهة الى أخرى للدرس وتحصيل العلم ٠ فالصحابة العلماء الذين اخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين فى أشياء وينقص فى أشياء أخرى ، اذ كان بعض الصحابة يغيبون عن مجلس النبى عليه الصلاة والسلام فى بعض الأوقات التى يحضر فيها الآخرون وبالعكس فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه ٠ فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة فى الأقاليم ، أصبح كل اقليم متأثرا بالصحابة الذين علموا فيه ٠ فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة الى التفقه على علماء الأقاليم الاسلامية الأخرى فكثرت الرحلة الى الأمصار المختلفة ٠ وقد تقابل العلماء فى مختلف الجهات وازدهرت فى ديار الاسلام مراكز عديدة للعلم يفد اليها الطلاب من مختلف الأقاليم الاسلامية ويقال : ان أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذى توفى سنة ١٨٤ هـ ٠ وتأثرت مصر بالمذاهب الاسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى ٠ ففى ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية وارتفع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٥ . والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧ ٠

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧ ٠

مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء واقبال نخبة من العلمـاء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها ٠

وقد نشأت فى العصر العباسى مذاهب انقرض بعضها فى العصر العباسى نفسه ، ولا يزال بعضها الآخر قائما حتى اليوم ٠ والمعروف أن فريقا من الفقهاء كانوا يغالون فى اتباع الرأى ، وغالى فريق آخر فى اتباع الحديث ، وكان هناك فريق ثالث يتبع طريقا وسطا بين الاثنين ٠ وأهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى ، والتى قدر لها البقاء الى اليوم مذهب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت الذى ولد بالكوفة وتوفى فى بغداد سنة ١٥٠ هـ ٠ ويعد الامام أبو حنيفة امام أهل الرأى والقياس ، وكان أشهر من دون مذهبه تلميذه أبو يوسف يعقوب بن محمد القاضى (١١٣ ـ ١٨٢ هـ) (١)

وثانى أئمة المذاهب الأربعة هو الامام مالك بن أنس الأصبحى الذى ولد بالمدينة المنورة وتوفى بها فى سنة ١٧٩ هـ ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ، ويقال لأصحابه أهل الحديث ٠

وثالث هؤلاء الأئمة فى القدم الامام محمد بن ادريس الشافعى القرشى الذى ولد بغزة وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم أتى الى مصر فى سنة ١٩٨ هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفى بها فى سنة ٢٠٤ هـ وقد جمع الامام الشافعى بين مذهبى الحديث والرأى ٠

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٨ وأحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ص ٨ ـ ٩ ٠

ورابع هؤلاء الأئمة هو الامام أحمد بن حنبل الشيبانى الذى ولد ببغداد وتوفى بها سنة ٢٤١ هـ وكان ابن حنبل يغالى فى اتباع الحديث اذ كان يقول ضعيف الحديث أقوى من الرأى ٠

وبالرغم من أن مذهب أبى حنيفة هو أقدم المذاهب الا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا فى عصر الولاة وانتشر بها اذ قدم كثير من أصحاب مالك الى مصر ٠ وكان أول من قدم الى مصر بفقه وعلم مالك هو عثمان بن الحكم الجذامى ، وعبد الرحمن بن خالد ابن يزيد ٠ وقد توفيا بمصر سنة ١٦٣ هـ ٠ وكان من أشهر فقهاء المالكية فى هذا العصر أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم ٠ وقد تفقه ابن القاسم على الامام مالك وصحبه عشرين سنة وتوفى بمصر سنة ١٩١ هـ ٠ ومن فقهاء المالكية فى مصر فى ذلك العهد أيضا عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى الذى توفى فى مصر سنة ١٩٧ هـ ٠ ومن مشاهير الفقهاء المالكية فى عصر الولاة أشهب بن عبد العزيز المصرى الذى توفى فى سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الامام الشافعى ، وعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصرى الذى أفضت اليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب ، وقد توفى سنة ٢١٤ هـ ودفن بجوار قبر الامام الشافعى ، وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر ، وممن أخذ عنه بنوه ، محمد بن عبد الحكم ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ ٠

أما المذهب الحنفى فيظهر أن أحدا من أهل مصر لم يذهب اليه فى عصر الولاة الا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة ٠ ورغم ايثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفى الا أن قضاة مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفى ٠ وهكذا بقى المذهب الحنفى محصورا فى نطاق ضيق ، وظل المصريون يتبعون المذهب المالكى حتى قدم الامام الشافعى الى مصر وكون مذهبه الجديد

بها • فعندئذ أخذ كثير من المصريين يتبعونه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب الشافعى منافسا للمذهب المالكي فى مصر •

وكان من ابرز فقهاء الشافعية فى ذلك العصر أبو يعقوب يوسف ابن يحيى البويطي • وقد سعى به قاضى مصر ابن أبى الليث الحنفى لدى الخليفة الواثق زمن المحنة بخلق القرآن فحمل البويطى الى بغداد ولكنه امتنع عن القول بخلق القرآن فسجن ببغداد ومات فى السجن سنة ٢٣١ هـ •

وكان من أبرز فقهاء الشافعية حينذاك الربيع بن سليمان ابن داود الأزدى الجيزى الذى تتلمذ على الامام الشافعى وقد توفى بالجيزة فى سنة ٢٥٦ هـ •

وهكذا نرى أن المذهبين المالكي والشافعى قد أصبحا متعادلين فى مصر ، أما المذهب الحنفى فكان أقل شأنا منهما ولو أن الخلافة العباسية كانت تؤيده • ولم يكن للمذهب الحنبلى أو المذاهب الأخرى السنية أهمية كبيرة فى مصر الاسلامية • أما عن المذاهب التى لا تعد من مذاهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج وغيرهما من المذاهب فلم يكن لها أثرها الا فى ظروف سياسية معينة اذ لم يقبل المصريون عليها ولم تعمر طويلا فى وادى النيل • وبالرغم من أنه حكمت مصر فى وقت ما ، دولة شيعية هى الدولة الفاطمية الا أن التشيع لم يبق بمصر بعد زوال تلك الدولة •

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر وقلبها النابض فى عصر الولاة جامع عمرو بن العاص ، مثله فى هذا مثل الأزهر الشريف الآن • فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة ، واليه يلجأ الناس للاستفتاء ، واليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى

كانت تدرس فى ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .
وأصبحت مصر مركزا علميا هاما خصوصا فى أواخر عصر الولاة .
فكان يفد اليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من افريقية والمغرب والأندلس .

ومن علماء افريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد وقد أخذ عن الليث بن سعد وعن غيره من المصريين . وقد توفى البهلول فى سنة ١٨٣ هـ .

ومن علماء الأندلس الذين تلقوا العلم على الفقهاء المصريين فى عصر الولاة عيسى بن دينار اذ صحب ابن القاسم ، وقد انتشر به وبيحيى بن يحيى مذهب مالك فى الأندلس . وتوفى عيسى سنة ٢١٢ هـ . فى طليطلة .

وكان لمصر سبق مذكور فى ميدان التصوف . اذ كان من مدرسة عصر الولاة أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المصرى أو الفيض ابن ابراهيم المصرى المعروف بذى النون . وقد ولد ذو النون فى اخميم فى صعيد مصر وروى عن الامام مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وغيرهم وكان أوحد وقته علما وورعا وأدبا وزهدا . ويعد ذو النون من أقطاب الصوفية ، وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الآن . وقد أنكر عليه أهل مصر وقالوا : أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسعى به بعض أعدائه لدى الخليفة المتوكل فاستحضره الخليفة من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما (١) وعاش ذو النون فى

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ والدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٢٦ ، وآدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٥ .

مصر وتوفى فى الجيزة سنة ٢٤٥هـ/٨٦٠ م ويقال : انه أول شيخ أعلن اعتناقه العقيدة الصوفية ٠

وقد كان ذو النون زعيم مذهب الاتصال بالله ويعتبره أصحاب التصوف مؤسس العقيدة الصوفية ويعتبرونه من أقطابهم الأول ، وذلك لأن الصوفية اخذت على يده شكلها الدائم وقد أدخل اليها النظرية القائلة بأن الوجد ، وليس العلم ، هو السبيل الوحيد لمعرفة الله المعرفة الحقيقية ٠

★★★

وقد بدأت مصر منذ عصر الولاة بالاشتراك فى الحركة الأدبية العربية اشتراكا قويا ، ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فان الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين٠ ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل اننا نجد مصر فى أواخر عصر الولاة تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ أواخر القرن الثانى الهجرى فيظهر فيها من له شأن فى العلم باللغة العربية وآدابها ٠ اذ نسمع حين قدوم الامام الشافعى الى مصر وهو الامام فى العربية وعلوم الدين ، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » وكان هذا الرجل حجة فى اللغة ، وكان الامام الشافعى شديد الأنس به ، يقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر : « يا ربيع ادع لى سرجا » ، فيأتى به ويذاكره الشافعى ويناظره ويعجب بغزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه : « يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم » ٠ (١)

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢ والأستاذ أمين الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة ص ٨ (مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ المجلد الثانى ج ١ سنة ١٩٣٤م) ٠

وممن نبغ فى مصر فى علوم اللغة والدين فى القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث الهجرى أبو عبد الله أحمد بن يحيى التجيبى ولاء ، المصرى ، الحافظ النحوى ، وكان من أعلم زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين ٠

★★★

وقد أنجبت مصر عددا وافرا من المؤرخين فى العصور الوسطى كان فى طليعتهم فى أواخر عصر الولاة عبد الرحمن بن عبد الحكم الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ والذى خلف لنا أقدم مؤلف كتبه مؤرخ مصرى مسلم فى مصر الاسلامية وهو كتاب « فتوح مصر وأخبارها » ٠

★★★

وكانت الاسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية ٠ ولسنا نستطيع أن نغفل الحديث عن أمر طالما كثر فيه الجدل ، ذلك هو حريق مكتبة الاسكندرية الذى نسبه بعض المؤرخين الى عمرو بن العاص ، ونفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربى وعن الخليفة عمر ابن الخطاب الذى ينسب اليه أنه أمر عامله عمرو بن العاص بأن يحرق المكتبة ٠ وأول من تحدث عن حريق هذه المكتبة هو عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) فى كتابه « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » فقد ذكر أن المكتبة أحرقت بأمر عمرو بن العاص ولكنه لم يذكر عن الحادث أى تفاصيل تجلى غوامضه أما الذى أتى على قصة طويلة فى مناسبة الكلام عن حريق المكتبة فهو أبو الفرج بن هارون الملطى المعروف بابن العبرى وهو مؤرخ ولد فى ملطية ودرس

اليونانية والعربية والسريانية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت ونصب بعد ذلك أسقفا وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . وملخص القصة التى رواها ابن العبرى فى كتابه « تاريخ مختصر الدول » أنه فى زمن فتح العرب لمصر اشتهر فى البلاد رجل اسمه يحيى النحوى (يوحنا غراما طيقوس) وقد اتصل يحيى هذا بعمرو بن العاص بعد فتح الاسكندرية ، وأعجب عمرو بغزارة علمه فقر به اليه . ثم طلب يحيى من عمرو أن يسلمه كتب الحكمة الموجودة فى خزائن الروم ، فأرسل عمرو يستأذن عمر بن الخطاب وكان رد الخليفة : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فاذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله ففى كتاب الله غنى عنه ، واذا كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم باعدامها » . وعندئذ أمر عمرو بن العاص بتوزيع الكتب على حمامات الاسكندرية فما زالوا يحرقونها فى مواقدها ستة أشهر .

وقد أشار الى حريق مكتبة الاسكندرية أيضا القفطى المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨ م فى كتابه « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » . وربما كان ابن القفطى وأبو الفرج بن العبرى أخذاها عن البغدادى .

وعلى كل حال فان الشك فى صحة هذه الرواية قديم ، وربما كان الأفضل بنا الآن أن نلخص فى بضع نقط الجدل الذى دار حول هذه المسألة :

أولا : ان اتهام المسلمين باحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون الا بعد أكثر من خمسمائة سنة مرت على فتح الاسكندرية . واذا جاز لنا أن نتهم المؤرخون المسلمين المتقدمين أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى بأنهم أحجموا عن الاشارة الى ذلك تعصبا منهم للمسلمين – فلسنا نجد شيئا نفسر به عدم الاشارة

اليها فى كتب المؤرخين المسيحيين مثل حنا النقيوسى الذى كان قريب العهد بفتح الاسكندرية ومثل سعيد بن بطريق (أوتيخا) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ٠ (٩٦٠ م) ٠

ثانيا : اثبت الدكتور الفردبتلر مؤلف كتاب « فتح العرب لمصر » أن يحيى النحوى أحد أبطال هذه القصة مات قبل غزو العرب مصر بزمن طويل ٠

ثالثا : الواقع أن المكتبتين اللتين قد تشير القصة الى واحدة منهما أو اليهما معا كانتا قد ضاعتا قبل الفتح العربى بزمن طويل ، فالأولى وهى مكتبة المتحف أتلفتها النار سنة ٤٨ ق٠م فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ، ويؤيد هذا القول المؤرخ اليونانى بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥م وغيره من المؤرخين ٠ أما المكتبة الثانية وهى مكتبة السرابيوم فالعلماء غير متفقين فى أمرها ، ولا يمكن القول يقينا هل نقلت من السرابيوم قبل سنة ٣٩١ م وهى السنة التى اشتد فيها النزاع بين الوثنيين والمسيحيين وحكم الطرفان الامبراطور ثيودوسيوس فقضى للمسيحيين واستطاع هؤلاء أن يخربوا السرابيوم وكان حصن الوثنيين المنيع ٠ بل الواقع أن نجاة الكتب غير معقولة بسبب تعصب المسيحيين الثائرين واعتبارهم هذه الكتب كتب الوثنية الضالة ٠ فيمكننا اذن أن نجزم بأن هذه الكتب كان مصيرها الضياع ولاسيما أن أوراسيوس الذى كتب فى سنة ٤١٦ ميلادية ذكر أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السرابيوم فارغة ليس فيها شىء من الكتب ولم يشر الى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الاسكندرية٠

رابعا : اذا سلمنا جدلا بأن الاسكندرية كانت تحتوى وقت الفتح الاسلامى على مكتبة كبيرة فان الهدنة التى عقدت بين المسلمين وأهل الاسكندرية كانت طويلة وكان فى استطاعة القوم أن ينقلوا

كنوز هذه المكتبة · ونحـــن نعـلم أن العرب أباحوا للروم نقـل ما يريدون من متاع وأموال ·

خامسا : ان عناصر القصة تدل على أنها خرافيـــة ولا أثر للتماسك بين أجزائها المختلفة ، من ذلك تفريق الكتب على الحمامات المختلفة واتخاذها وقودا مدة ستة شهور · فان القائد الذى يأبى اعطاءها لصديقه ويريد حرق الكتب تنفيذا لأمر الخليفة ، يحرقها حيث هى أو يشرف على هذه العملية على أقل تقدير ، ولا يدفع الكتب الى الحمامات حيث يمكن أصحابها أن يبيعوها للناس بثمن بخس · ثم ان أكثر هذه الكتب كانت مكتـــوبة على الرق ، والرق لا يصلح للوقود وليس من المعقول أن يكفى الباقى مدة ستة أشهر وقودا لأربعـــة الآلاف حمـــام التى زعم العـــرب وجودها فى الاسكندرية ·

سادسا : ان الذين يؤيدون دعوى اتهام المسلمين بحـــرق المكتبة ، بأنهم حرقوا مكاتب الفرس عند الفتح لا يستطيعون أن يأتوا على هذا الزعم الثانى بأى دليل من المؤرخين الأقدمين ·

سابعا : ان الاحتجاج بأن رواية حريق المسلمين للمكتبـة لم يذكرها ابن العبرى فقط ، وقد يطعن فى قوله بالتعصب ، بل رواها مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى· هذا الاحتجاج ليس قويا لأن هؤلاء المؤرخين عاشوا كلهم فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، ولعلهم ، ثلاثتهم ، أخذوا عن مصـــدر مشترك كان متعصبا ضد الاسلام ولم يصـــل الينا · أو لعلهم صدقوا الروايات التى كانت تتناقلها الألسن والتى لم يكن الغرض منها الا الطعن ضد المسلمين فضلا عن أن عبد اللطيف لم يشر الى المسألة الا عرضا عند كلامه على عمود السوارى ·

ثامنا : ان التعاليم الاسلامية تحترم الديانات السماوية وان المسلمين لم يكونوا ليقدموا على هذا العمل ولا سيما أن من شروط الصلح أن تترك للمسيحيين الحرية الدينية وألا يتدخل المسلمون فى شئونهم ، وحرق المكتبة يعتبر خرقا لهذه الشروط لأنه لا شك فى أنها كانت تحتوى على كتب دينية كثيرة ٠

وهكذا ننتهى الى أن مكتبة الاسكندرية حرقت منذ عهد يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق٠م ثم حرقت بعد ذلك بنحو أربعمائة سنة حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية ، وقضى الامبراطور ثيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية ٠

ومع ذلك كله فان فى التاريخ أمثلة عديدة تثبت أن احراق الكتب لم يكن فى يوم من الأيام وقفا على شعب من الشعوب أو أتباع ديانة من الديانات ، فالصليبيون أحرقوا الكتب فى طرابلس الشام فى القرن الثالث عشر ، والأسبان أحرقوا الكتب العربية بعد أن طردوا العرب من الأندلس ، وكذلك أحرق الفرنسيون الكتب التى وقعت فى أيديهم عندما فتحوا مدينة قسطنطينية فى تونس ، وليس ببعيد أيضا ما فعله الألمان قبيل الحرب الأخيرة بالكتب التى ألفها اليهود أو الاشتراكيون أو الشيوعيون ٠

ومهما يكن من الأمر ، فان الفتح العربى لم يقض على الحياة العلمية فى الاسكندرية ولا سيما فى العلوم العقلية ، وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح ، وحسبنا دليلا على النشاط العلمى فى الاسكندرية فى عصر الولاة ما ذكره ابن النديم فى الفهرست من أن خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم المام باللغة العربية وطلب اليهم نقل كتب

الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية الى العربية ، فكان هذا أول نقل الى العربية فى الاسلام ٠

كذلك ذكر ابن أبى أصيبعة (١) أنه كان فى الاسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن أبجر وكان يدرس بها ، وكان عمر ابن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميرا وبعد أن صار خليفة ٠ كذلك أرسل الخليفة هارون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الاسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له ٠

وقد احتذى حنين بن اسحق ، طبيب بغداد الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، حذو الاسكندريين فى التأليف ٠ لكن يظهر أن مدرسة الاسكندرية أخذ شأنها يقل بعد ذلك ، فان الأقباط لم يعنوا عناية كبيرة بدراسة الثقافة اليونانية الرومانية٠ أما العرب والأقباط الذين أسلموا فقد أقبلوا على دراسة العلوم الاسلامية الدينية ٠ ولعل بعض المصريين المسلمين أقبلوا على دراسة الثقافة اليونانية ، فيذكر ابن النديم فى الفهرست أن ذا النون المصرى كان من الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الصنعة (الكيمياء) ٠

والواقع أنه ان كان لمصر فى عصر الولاة نصيب فى حفظ تراث اليونان والمسيحية الشرقية أو نقله الى الغرب ، فانما هو فى تركها علماء الروم يغادرون مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح، وفى عدم تعرضها لمدرسة الاسكندرية أو للأديرة التى كانت مراكز الثقافة المسيحية فى مصر ٠

---

(١) طبقات الأطباء (القاهرة سنة ١٢٩٩هـ) ج ١ ص ١٦٦ ٠

خاتمة فى عصر الولاة

تبوأت مصر مركزا ممتازا فى الدولة الاسلامية عقب الفتح العربى ذلك لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها العالمى الممتاز . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمرها أنهم كانوا يولونها أحيانا أبناءهم أو اخوتهم أو أفرادا من البيت الخليفى القائم بالحكم .

وقد كانت مصر كالمرآة تنعكس عليها الحركات السياسية والدينية التى تحدث فى دار الخلافة ، كما كانت قبلة أنظار الشخصيات الطامحة الى منصب الخليفة .

وبالرغم من أنه نشأت فى مصر فتن وخلافات دينية عديدة منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح ، وبالرغم من أنه نشأت فى الاسلام بدع ونحل وفتن دينية كثيرة ، الا أن مصر بعد الفتح العربى أقبلت على اعتناق الاسلام خالصا ، ولم يكن لأهل البلاد من المصريين يد فى اثارة الخلافات الدينية التى قامت فى العالم الاسلامى . وان كان قد أثير فى مصر بعض الفتن فقد كان هذا نتيجة لتأثرها بحوادث الخلافة وسرعان ما كانت تعود الحياة ثانية الى مجاريها .

ويشبه التقسيم الادارى فى العصر الاسلامى التقسيم الذى كان معروفا فى العصر الرومانى اليونانى ولكنه لم يكن مماثلا له كل المماثلة · كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطى ، وبعبارة أخرى النظام الديوانى الذى كان سائدا فى الادارة المصرية قبل الفتح أثر فى العرب ، فكانت الادارة مركزة فى دواوين الحكومة بالعاصمة وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل والانشاء ، وديوان الجند ، وديوان القضاء · والمعروف أن الوثائق البردية العديدة التى اكتشفت حديثا تقدم دليلا ماديا على وجود نظام بيروقراطى استمده العرب من البيزنطيين ·

ويظهر أن مصر العليا ومصر السفلى كانا اقليمين منفصلين من الوجهة الادارية ومع ذلك فان أصحاب الكوارث كانوا خاضعين مباشرة لوالى البلاد · والظاهر بوجه عام أننا نعرف عن كبار الموظفين فى العصر الاسلامى من الوجهة النظرية عامة أكثر مما نعرف عن حقيقة الأداة الحكومية الفعالة ·

ونلاحظ أن الغرض الأساسى للادارة كان ينطوى على جمع الضرائب واستثمار الأرض واستغلال الفلاح كما كانت الحال فى العهد البيزنطى ·

وكان العامل على الصلاة ، والعامل على الخراج ، متساويين فى الحقيقة على الرغم من أن الأول كان رئيس الهيئة التنفيذية فى القطر بل حدث فى كثير من الأحيان أن كان صاحب الخراج أعظم نفوذا من الوالى ، وأحيانا كان الوالى يجمع بين المنصبين ، وفى الواقع لم تكن سلطة الوالى مطلقة فى ولايته على مصر ،بل كان يحد منها نفوذ العامل على الخراج ، ونفوذ الجند ، ونفوذ الموظفين، ونظرا لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان الوالى يسعى

دائما الى أن يضاف اليه اختصاص هذا المنصب ليصبح واليا على الصلاة والخراج معا ولم يكن فى الجمع بين هذين المنصبين بأس مادامت الحكومة المركزية فى مقر الخلافة قوية مرهوبة الجانب ٠ ولكن عندما تطرق الضعف الى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين أكبر عون على استقلال الوالى وتفكك الامبراطورية ، فنرى ابن طولون يتنازع مع ابن المدبر صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله الا بعد تخلصه من ابن المدبر ٠

والظاهر أن العرب وجدوا فى مصر عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما ٠ وكان هذا النظام يبعدهم الى حد كبير عن الاتصال بالفلاحين ودافعى الضرائب مباشرة ٠ وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة ، بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض الى حد كبير جدا ، وكانوا لا يغيرون مقرهم الا بترخيص ٠ ولسنا نعرف تماما هل أخذ الموظفون يحلون محل هؤلاء الملاك فى جمع الضرائب ، والى أى حد وبأية سرعة تم هذا التغيير ٠ ومن الراجح أن هؤلاء ظلوا يضمنون دفع الضرائب ولكن أخذ العرب يحلون محلهم تدريجيا فى امتلاك الأرض وضمان الخراج ، وقد كان فلاحو القرية متضامنين فى الضرائب التى تفرض عليهم ، وكان لا يجوز لهم الهجرة من مقرهم الا باذن من الحكومة ٠ وقد اتخذت الحكومة فى بداية العصر الاسلامى اجراءات شديدة لمنع الهجرة من كورة الى أخرى ، ولكشف المهاجرين واعادتهم ، أو الاذن لهم بالاستقرار فى مقرهم الجديد ضمانا لحسن سير فلاحة الأرض ولجمع الضرائب ، كما كان لا يجوز نقل المحاصيل أو المنقولات من مكان الى آخر الا بتصريح ، ويدل على ذلك أمثلة عديدة فى أوراق البردى ٠

ويبدو من المصادر الاسلامية والمسيحية فى تاريخ عصر الولاة أن الهدف الرئيسى الذى كان يعنى به العرب هو الجزية التى كانوا يجمعونها من القبط · ويظهر أن الادارة المالية كانت معقدة وأن الذين كانوا يفهمونها أكثر من غيرهم هم الموظفون القبط · ويمكننا القول بأن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب الى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا · ولما كانت البلاد فى مصر فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، فلم تكن من الوجهة المالية الا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو قدرتها على الانتاج اذ كان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن ·

وقد ترك العرب للمصريين أراضيهم وأمنوهم عليها وفرضوا عليها الخراج · ولم تكن أرض مصر فى بداية هذا العصر أرض خراج فحسب ، بل نشأت فيها أرض العشر ، اما قطيعة منحت لبعض المسلمين ، أو أرضا حصلوا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء ، أو أرض موات احتلوها · كذلك كان القبطى الذى يعتنق الاسلام تصبح أرضه عشرية · ولكن نجد أنه بمضى الوقت أصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج دون النظر الى مالكها سواء أكان قبطيا أم مسلما ، ولا تعرف متى كان هذا التحول بالضبط ، والراجح أنه كان فى العصر العباسى · وكان أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة مجحفة زمن الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) حين كان موسى بن مصعب الخثعمى واليا على مصر (١٦٧ ـ ١٦٨ هـ) ·

ولابد أن بعض ولاة مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيها تمكنوا من الاثراء وجمع الأموال الطائلة ، وخاصة فى العصر العباسى ، حين كثر تولية العمال وعزلهم · ولا نعرف هل كان

الولاة فى هذا العصر يلزمون بعض الموظفين والأثرياء بدفع ثرواتهم أو جزء كبير منها الى خزانة الدولة ثانية ، كما كان يحدث فى عصر الطولونيين والاخشيديين ، رغم أن هذه السياسة كانت معروفة جدا فى مقر الخلافة فى القرن الثالث الهجرى ولا سيما فى حالة الوزراء حين عزلهم · وربما كانت مثل هذه المصادرات مألوفة فى عصر الولاة المستقلين من الطولونيين والاخشيديين رغبة منهم فى تنمية ثرواتهم الخاصة ·

ولم يكن للمصريين فى عصر الولاة حق الاشتراك فى الجيش فكان رجال الجيش النظامى ورجال الأسطول من العرب · ولكن كانت هناك فرق غير نظامية مثل المطوعة ، وربما كان أغلبهم من المصريين · كذلك كان يجمع من أنحاء القطر مساعدون وأعوان وفقا لنظام الالتزامات أو الليتورجيا · ولا ينفى هذا ما ذكرناه من أن المصريين لم يشتركوا فى صلب الجيش اذ كانوا يقومون بأدوار ثانوية ، كما أنهم لم يثبتوا فى ديوان الجند ولم يصرف لهم العطاء الذى كان يصرف للفرق النظامية · ونجد أن العنصر العربى فى الجيش والأسطول يقل ابتداء من العصر العباسى لاقباله على وظائف الادارة أو على الزراعة والتجارة ، ويصبح قوام الجيش من الفرس أولا ثم الترك ثانيا حتى أتى المعتصم فى بداية القرن الثالث الهجرى فأمر باسقاط العرب نهائيا من الديوان ·

وكانت أهم ظاهرة تاريخية فى عصر الولاة هى ظاهرة تمصير العرب وتعريب مصر ونشر الاسلام فيها · ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الاسلام فيها ليسا مترادفين · وقد ظل الاسلام ينتشر فى مصر الى عصر المماليك · وحدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) أن دخل المسيحيون أفواجا فى الدين الاسلامى على أثر سلسلة من المشاغبات والفتن بين المسلمين

والأقباط والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها ازاء القبط لم يمنع الشعب نفسه من أن يسيء معاملة القبط فى بعض الأحيان · ونرى أن التضييق على أهل الذمة بالتزام أنواع خاصة من الملابس ، وبتحريم ركوب الخيل أو انشاء كنائس جديدة ، لم يكن يراعى الا فترات قصيرة جدا ثم يهمل شأنه ، وربما كان غضب المسلمين بين حين وآخر لاهمال هذه الالتزامات هو الذى كان يدفع الحكومة الى العمل على تنفيذها فى فترات معينة · والظاهر أن الدواوين كانت غاصة بالموظفين القبط الى عصر المماليك مما كان سببا فى قيام عدة ثورات فى هذا العصر (٨ هـ و ١٤ م) أشار اليها المقريزى فى خططه ، وكان المسلمون يهدفون بهذه الثورات الى اخراجهم من الدواوين ، وكانت الحكومة نفسها تعمل على حماية أهل الذمة تمسكا بروح الدين وما يقضى به من التسامح وضمانا لحسن سير الأعمال العامة ، ولكنها كانت تضطر أحيانا الى التقرب الى بعض طبقات الشعب بالسكوت على بعض الحركات الاضطهادية ضد المسيحيين أو الاشتراك فيها ·

وقد رأينا فى عصر الولاة أنه كان هناك مصانع حكومية للنسج (طراز الخاصة) ومصانع حكومية أو أهلية تراقبها الحكومة (طراز العامة) · وكانت الحكومة فى عصر الولاة بل والى العصر الفاطمى تحصل على معظم حاجتها من مصانعها الخاصة، بينما أصبحت فى عصر المماليك تعتمد على المصانع الأهلية العامة ·

ولا نعرف اذا كانت التجارة الخارجية فى عصر الولاة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط ظلت على ما كانت عليه فى العصر الرومانى اليونانى ، أم أخذت فى النمو والزيادة تمهيدا للازدهار الذى وصلت اليه فى عصر الأيوبيين والمماليك · والظاهر أن تجارة الهند لم تصبح مصدرا كبيرا لثروة ذوى الأمر فى مصر الا منذ

الدولة الأيوبية · ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يساهموا فى النشاط التجارى الخارجى الا بقدر ضئيل ، ولعل هذا يرجع الى عدم اقبال المصريين بوجه عام على التجارة منذ العصور القديمة. ويرجح أن معظم التجار فى عصر الولاة كانوا من الخارج مثل أسرة الماذرائيين العراقية ، التى اشتهرت قبيل العصر الطولونى وظلت واسعة النفوذ ورفيعة المكانة الى العصر الاخشيدى · وكان لليهود شأن عظيم فى التجارة فى ذلك العصر ·

ولا نعرف اذا كانت مصر فى عصر الولاة قد عرفت نظام احتكار بعض البضائع أو الحاجيات ، اللهم الا اذا استثنينا ما فعله ابن المدبر فى نهاية هذا العصر من الحجر على النطرون بعد أن كان مباحا لكل الناس ، كذلك أدخل ابن المدبر المراعى ، أى الكلأ الذى ترعاه الدواب ، فى الديوان ، وحرم على الناس أن يبيعوا المراعى أو يشتروها الا من الديوان ·

وقد احتفظت مصر فى هذا العصر من الناحية الفنية (العمارة والفنون الزخرفية) بكيانها الخاص ، وكان التحول الى الروح الاسلامية فى هذه الفنون تحولا بسيطا · ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية الى الأساليب الفنية العباسية التى سادت مصر فى العصر الطولونى ·

ومن المدن التى اشتهرت فى عصر الولاة مدينة الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها ، ومدينة الاسكندرية عاصمة مصر الثانية وميناؤها الهام ومقر البطركية · ومن المدن الهامة أيضا فى هذا العصر تنيس ودمياط وبورة وتونة ودميرة ودبيق وشطا وأهناسيا والبهنسا وأسيوط وأخميم والفيوم ، وكلها تدين فى شهرتها للصناعات وخاصة صناعة النسج · كذلك اشتهرت منطقة البشمور بثوراتها المتعددة وخاصة تلك الثورة التى انتهت بمجىء الخليفة المأمون الى مصر ·

وقد حدثت فى عصر الولاة مجاعات كالتى حدثت فى العصور التى تلتها مثل العصر الاخشيدى والفاطمى والأيوبى وعصر المماليك ونلاحظ أن المجاعات التى حدثت فى مصر منذ العصور القديمة يرجع معظمها الى نقص مياه النيل نقصا يضر بالزراعة أو زيادته زيادة تضر بها ، ولما كانت ثروة مصر الرئيسية تتوقف على الزراعة ، كان يترتب على الاضرار بالزراعة غلاء ومجاعات · ولا نكاد نسمع أن المجاعات التى حدثت فى عصر الولاة ، والثورات القبطية ، والفتن الداخلية ، قد اثرت فى رخاء مصر وثروتها تأثيرا بليغا ، ولعل ذلك راجع الى خصوبة أرض مصر ، والى تباعد تلك الظروف، فضلا عن أن المجاعات التى حدثت فى مصر لم تستمر مدة طويلة بحيث تؤثر فى كيان مصر الاقتصادى ·

ونلاحظ أن مصر فى عصر الولاة أصبحت مركزا علميا هاما فى الدولة الاسلامية · وكان جامع عمرو بن العاص مقر العلوم الدينية الاسلامية فى مصر وملتقى العلماء · وكان علماء مصر أساتذة لعلماء افريقية والأندلس بوجه خاص ·

وقد رأينا أن الشعور الوطنى بين المصريين كان ضعيفا فى عصر الولاة ، فلم يكن فى ثورات القبط ضد حكومة العرب عنصر وطنى بل كانت كلها بسبب الضرائب · ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب للقضاء على حركات القبط وعلى دفعهم الى اعتناق الدين الاسلامى والى استعمال اللغة العربية ·

وقد كانت الحالة فى مصر بعكس ايران مثلا · فلا نعرف فى مصر حركة شعوبية كما كان فى شرق العالم الاسلامى · ففى عهد الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس ، بدأ هؤلاء يتكلمون ويكتبون ويناقشون العرب ويعددون مزايا الفرس وقد عرفت هذه المناقشات الأدبية بين الشعراء والأدباء من العرب

والعجم باسم حركة الشعوبية · فكان العجم يقولون بالتسوية بين المسلمين جميعا ولذا عرفوا بالشعوبية أو أهل التسوية ، ولما اشتد الجدال بين العرب والعجم أصبح الشعوبى هو الذى يصغر من شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على العجم · وهذه الحركة وان كانت مناقشات كلامية ومساجلات أدبية بين العرب والعجم الا أنها تعبر عن تمسك الايرانيين بتراثهم الوطنى ، وعن ثورتهم على سيادة العرب التى قضت على ملك كسرى وقضت على استقلال الفرس وهم شعب ذو حضارة عتيدة ، كما أنها تشهد بأن الروح الوطنية بين الفرس لم تمت بفتح العرب لبلادهم · وعندما شعر الفرس بقوتهم منذ قيام الدولة العباسية وبضعف العرب قاموا بحركات مختلفة تدعو الناس الى اتباع نحل غريبة على الدين الاسلامى ، ولم تكن هذه الحركات فى الحقيقة سوى حركات سياسية دينية ايرانية ترمى الى اقامة دولة فارسية تعود الى التقاليد القديمة وتتخلص من العرب ولغتهم ودينهم · وقد قامت فى ايران حين ضعفت الدولة العباسية أسرات ايرانية مثل أسرة بنى طاهر بخراسان والأسرة الصفارية باقليم فارس الذى يقع شرق الخليج الفارسى ودولة بنى ساج فى آذربيجان والدولة السامانية فى اقليم ما وراء النهر ·

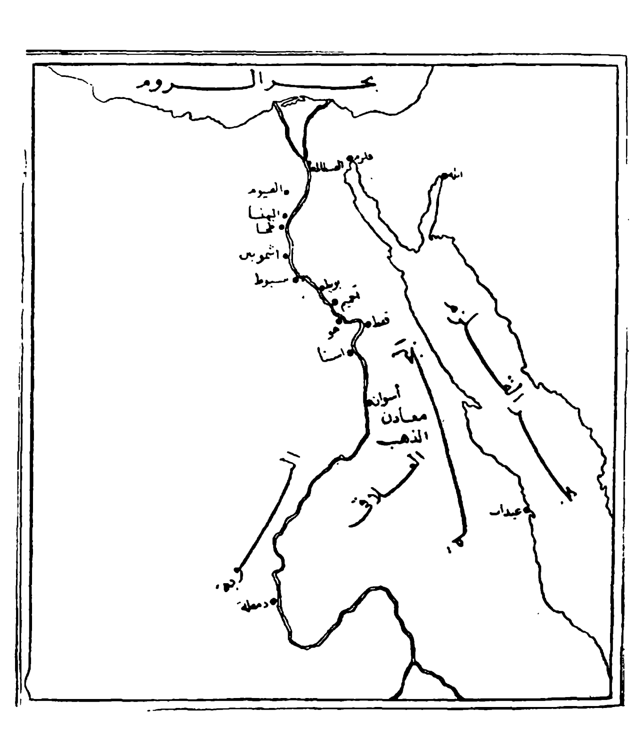
أما فى مصر فان الأسرات التى قامت فيها كانت أجنبية عنها مثل الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك وقد ظل الروح الوطنى قائما فى ايران حتى أمكن قيام شاعر وطنى مثل الفردوسى الذى نظم الشاهنامة باللغة الفارسية الحديثة فى القرن الرابع الهجرى ، بينما نجد فى مصر أن رجال الدين الأقباط اضطروا منذ القرن الرابع الهجرى ، الى الكتابة باللغة العربية والى مخاطبة أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم · وكانت مصر خاضعة خضوعا تاما للخلافة طالما كانت

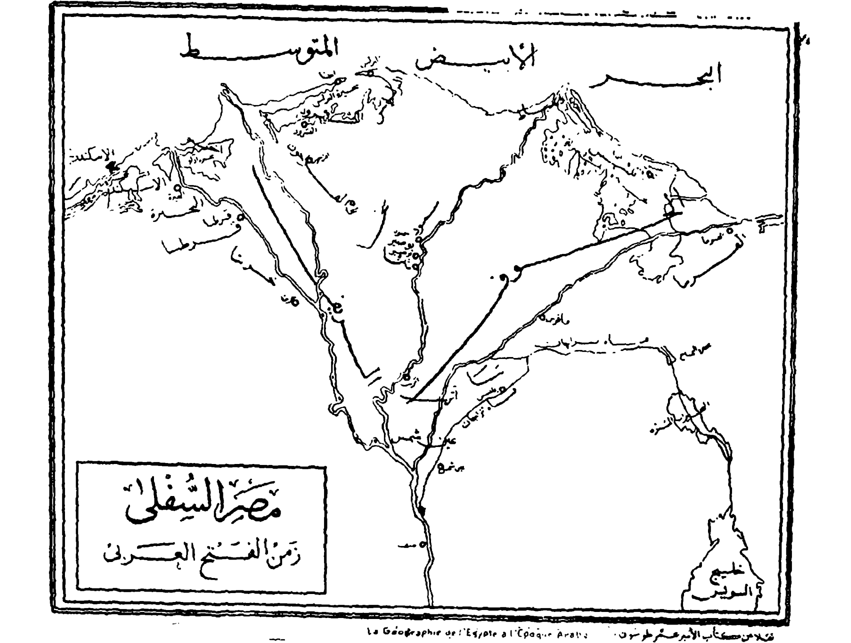
الخلافة قوية الجانب · ولكن بدأ الضعف يدب فى جسم الخلافه العباسية فى أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيـــه المأمون · وما لبث أن وضح ذلك الضعف بعد أن استعان الخليفة المعتصم فى حكم الدولة بالأتراك الذين تحكموا فى شئون الدولة المدنية والحربية حتى أصبح بيدهم منذ خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) انتخاب الخلفـــاء وعزلهم ولـذا نجـد أن النزعة الى الاستقلال تظهر فى مصر واضحة جلية فى أثناء النزاع بين الأمين والمأمون وكان يمثل هذه النزعة السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى وأولادهما ·

على أن أحمد بن طولون الذى قدم الى مصر فى سنة ٢٥٤هـ واليا على الصلاة من قبل باكباك صاحب اقطاعها ، وجد مصر ولاية اسلامية تامة التكوين ، ووجد الخلافة ضعيفة ، ولا سيما بسبب ثورة الزنج ، فسرعان ما تحدى سلطة الخلافة واستقل بمصر استقلالا فعليا فى الواقع واسميا فى الظاهر ، بل انه نجح فى ضم سورية الى مصر وفى تاسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ عاما وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر الاسلامية ·

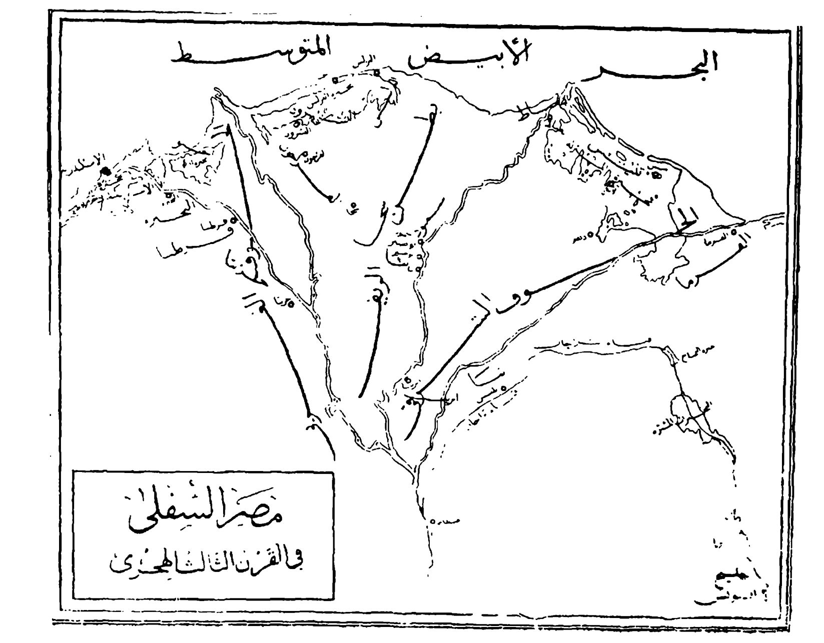
— مصر العليا —

في العهد العربي





نقلا عن كتاب الأمير عمر طوسون: La Géographie de l'Egypte à l'Époque Arabe



البحر الأبيض المتوسط
مصر السفلى
في القرن الثالث الهجري

المراجع

١ ـ المصادر القديمة

١ ـ ابن الأثير (المتوفى ٦٣٠ هـ ، ١٢٣٢ م) : « الكامل في التاريخ » ١٢ جزءا · ليدن ١٨٦٦ ـ ١٨٧٤ م ·

٢ ـ ــــــــ : « أسد الغابة في معرفة الصحابة » ٥ أجزاء · القاهرة ١٢٨٥ ـ ١٢٨٦ هـ ·

٣ ـ الأزرقــي (ت ٢٠٤ هـ /٨١٩ م أو ٢١٩ هـ /٨٣٤ م أو ٢٣٣ هـ/٨٣٨ م) ·

« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » جزءان · المطبعة الماجدية بمكة المكرمة · ١٣٥٢ : ١٣٥٧ م ·

٤ ـ ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩ ـ ١٢٧٠ م) :

« طبقات الأطباء » جزءان · القاهرة ١٢٩٩ هـ ·

٥ ـ البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ ـ ٨٩٣ م) : « كتاب فتوح البلدان » ليدن ١٨٦٦ م ·

٦ ـ بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م) :« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » الجزء الرابع مخطوط رقم ٢٤٠٢٧ بمكتبة جامعة القاهرة ·

٧ ـ حاجى خليفة (ت ١٠٦٧ هـ/١٦٥٧ م) : « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ٧ أجزاء · ليبزج ـ ليدن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨ م ·

٨ ـ ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ /١٤٤٨ ـ ١٤٤٩ م) : « الاصابة فى تمييز الصحابة » ٨ أجزاء · القاهرة ١٣٢٣ ـ ١٣٢٥ هـ ·

٩ ـ حنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى) ·

« تاريخ »

Chronique de Jean, évêque de Nikiou, Texte Ethiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques. t. 24. Paris 1883).

١٠ ـ ابن خرداذبة (ت حوالى ٣٠٠ هـ/٩١٢ م) : « كتاب المسالك والممالك » (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية) · ليدن ١٨٨٩ م ·

١١ ـ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م) : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ هـ ·

١٢ - ـــــــــ : « المقدمة » . القاهرة ١٢٤٨ هـ - ١٩٣٠ م .

١٣ - ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ /١٢٨١ م) : « وفيـات الأعيان » جزءان القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٤ - ابن الدايـة (ت ٣٣٠ هـ/٩٤١ م أو ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م أو ٣٤٠ هـ /٩٥١ م) : « سـيرة أحمد ابن طولون » . برلين ١٨٩٤ م ، والسيرة في المغرب في صلى المغرب لابن سعيد الأندلسي نشر الدكتور زكي محمد حسن الجزء الأول من القسم الخاص بمصر . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ .

١٥ - الشريف الأدريسي (ت ٥٦٠ هـ/١١٦٤ - ١١٦٥ م) : « صفة المغرب وأراضي السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . ليـــدن ١٨٦٤ - ١٨٦٦ م .

١٦ - ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) : « كتـاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزء الرابع والخامس. بولاق ١٣٠٩ هـ .

١٧ - الدينوري (ت ٢٨١ هـ /٨٩٤ م أو ٢٩٠ هـ /٩٠٣ م) : « الأخبار الطوال » . القاهرة ١٣٣٠ هـ .

١٨ - ابن رسته : « الأعلاق النفيسة » (الجزء السـابع مـن مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٩١ - ١٨٩٢ م .

١٩ - ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن ٤ هـ/أواخر القرن ١٠ م) : سير الآباء البطاركة (الجـزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة Patrologia Orientalis باريس ١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٥ .

٢٠ ـ ابن سعد كاتب الواقدى (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٥ م) :« الطبقات الكبرى » ٨ أجزاء · ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩٢١ م ·

٢١ ـ سعيد بن بطريق : المعروف باسم أوتيخا (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» جزءان · بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩ م ·

٢٢ ـ السيوطى (ت ٩١١ هـ /١٥٠٥ م) : « تاريخ الخلفاء » القاهرة ١٣٥١ هـ ·

٢٣ ـ ـــــــ : حسن المحاضرة : جزءان · القاهرة ١٣٢٧ ·

٢٤ ـ ابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢ م) : « فوات الوفيات » جزءان · القاهرة ١٢٩٩ هـ ·

٢٥ ـ أبو صالح الأرمنى : « تاريخ » المعروف بكنائس وأديرة مصر طبعة Evetts أكسفورد ١٨٩٥ م ·

٢٦ ـ الاصطخرى « كتاب مسالك الممالك » : (الجزء الأول من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٩٢٧ م ·

٢٧ ـ ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » الطبعة الثانية ـ مطبعة المعارف بمصر ·

٢٨ ـ الطبرى (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) : « تاريخ الأمم والملوك » ١١ جزءا ـ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية ·

٢٩ ـ ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ/٨٧٠ ـ ٨٧١ م) : « فتوح مصر وأخبارها » طبعة تورى Torrey نيوهافن ١٩٢٢ م وطبعة هنرى ماسيه Henri Masse المعهد العلمى الفرنسى· القاهرة ١٩١٤ م ·

٣٠ ـ ابن العميد المعـــروف بالمكين (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ ـ ١٢٧٤ م) تاريخ المسلمين » ليدن ١٦٢٥ م ٠

٣١ ـ أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ ـ ١٣٣٢ م) : « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء ٠ الطبعـــة الأولى بالمطبعـة الحسينية ١٣٢٥ هـ ٠

٣٢ ـ ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ/١٣٩٦ ـ ١٣٩٧ م) : « كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » ٠ القاهرة ١٣٢٩ هـ ٠

٣٣ ـ ابن الفقيه (ت أواخر القـــرن ٣ هـ/أوائل ١٠ م) : « مختصر كتاب البلدان » (الجزء الخامس من المكتبـــة الجغرافية) ليدن ١٨٨٥ م ٠

٣٤ ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م أو ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) : « كتــاب الامامة والسياسة » ٠ جزان ٠ القاهرة ١٣٢٥ هـ ٠

٣٥ ـ قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م أو ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م أو ٣٣٧ هـ/٩٤٨ ـ ٩٤٩ م) : « نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » ٠ (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٩ م ٠

٣٦ ـ القلقشندى (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) : « صبح الاعشى فى صناعة الانشا » ـ ١٤ جزءا المطبعة الاميرية بالقـــاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ م ٠

٣٧ ـ الكندى (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١ م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة » بيروت ١٩٠٨ م Gibb Memorial Series

٣٨ ـ الماوردى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) : « الأحكام السلطانية » القاهرة ١٢٩٨ هـ ٠

٣٩ ـ أبو المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ ـ ١٤٧٠ م) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الأول والثانى ٠ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م ٠

٤٠ ـ المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٠ ليدن ١٨٧٧ م ٠

٤١ ـ المسعودى (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ » جزءان ـ طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٨ أجزاء طبعة Barbier de Meynard ـ باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٤ م ٠

٤٢ ـ ــــــ : « التنبيه والاشراف » (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ م ٠

٤٣ ـ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ ـ ١٤٤٢ م) : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان ٠ بولاق ، ١٢٧٠ هـ ٠

٤٤ ـ ــــــ : « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » القاهرة ١٣٥٦ ٠

٤٥ ـ ــــــ : « شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والاسلامية » المعروف باسم النقود الاسلامية٠القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ٠

٤٦ ـ ـــــــ : « اغاثة الأمة بكشف الغمة » طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ الشيال · القاهرة ١٩٤٠ ·

٤٧ ـ ابن النـــديم (ت ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م) : « الفهرســـت »· ليبزج ١٨٧١ م ·

٤٨ ـ النويرى (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ ـ ١٣٣٢ م) : « نهـــاية الأرب فى فنون الأدب » ١٣ جزءا ـ طبعـــة دار الكتب المصرية والباقى مخطوط بدار الكتب المصرية · الجزء الأول طبعة دار الكتب الثانية ١٩٢٩ م ـ والجزء ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٤ « معارف عامة » ·

٤٩ ـ ياقوت الحمـــوى (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) : « معجـــم البلدان » ٦ أجزاء · ليبزج ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣ م ·

٥٠ ـ يحيى بن آدم القرشى : « كتاب الخراج » ليدن ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ ·

٥١ ـ اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) : « كتـــاب البـــلدان » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن سنة ١٧٩٢ ·

٥٢ ـ ـــــــ : « تاريخ » · جزءان · طبعة هوتسما Houtsma ليدن ١٨٨٣ ·

٥٣ ـ أبو يوسف صاحب أبى حنيفة (ت ١٨٢ هـ/٧٩٨ م) : « كتاب الخراج » · بولاق ١٣٠٢ هـ ·

٥٤ ـ

Becker (C. H. : Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1911).

٥٥ ـ
Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum. (Der Islam. Band II. III. IV. XVII. 1911, 1912, 1913, 1928).

٥٦ ـ
Van Berchem : Max : Matériaux pour un Corpus inscriptionum Arabicarum.

a) L'Egypte (Mémoires Publiés par les membres de l'Institut Français de Cairo — 1894).

b) Jérusalem Ville (Mémoires ... 1920-1922).

٥٧ ـ
Combe. Et., J. Sauvaget, G. Wiet : Repertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I. II. Le Caire 1931.

٥٨ ـ Crum : W. E Coptic Ostraca. London 1902.

٥٩ ـ
Grohmann Adolf : Arabic Papyri in the Egyptian Library Vols. I. II. III., Cairo 1934, 1936, 1938.

الجزء الأول نقله المؤلف الى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن بعنوان : « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

٢ - المراجع الحديثة

أ - المراجع العربية

٦٠ - الأستاذ أحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ - القاهرة ١٩٢٨ م .

٦١ ———— : ضحى الاسلام ج ٣ - القاهرة ١٩٣٦ م .

٦٢ - أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة . القاهرة ١٣٥١ هـ .

٦٣ - أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن - القاهرة ١٩٤٢ .

٦٤ - أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر - ج ١ - القاهرة ١٩٣٥ م .

٦٥ - ادولف جروهمان : أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية تعريب الأستاذ توفيق اسكاروس - دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٠ م .

٦٦ - الياس بك الأيوبى : تاريخ مصر الاسلامية - ج ١ - القاهرة ١٩٣٢ .

٦٧ - الأستاذ أمين الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، المجلد الثانى ، الجزء الأول القاهرة - مايو ١٩٣٤ م) .

٦٨ ـ الأب انستاس الكرملى : النقود العربية وعــلم النميات. القاهرة ١٩٣٩ م ٠

٦٩ ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن ٠ تاريخ عمرو بن العاص ٠ القاهرة ١٩٢٦ م ٠

٧٠ ـ ـــــ : تاريخ الاسلام السياسى ٠ ج ١ ـ القــاهرة ١٩٣٥ م ٠

٧١ ـ الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ٠ ج١ ـ القاهرة ١٩٣٥ م ٠

٧٢ ـ ـــــ : كنوز الفاطميين ـ القاهرة ١٩٣٧ م ٠

٧٣ ـ ـــــ : فى مصر الاسلامية مع البكباشى عبد الرحمــن زكى وآخرين ٠ القاهرة ١٩٣٣ م ٠

٧٤ ـ ـــــ : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ٠ القاهرة ١٩٣٩ م ٠

٧٥ ـ ـــــ : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية (فى مجلة جمعية الآثار القبطية) القاهرة سنة ١٩٣٧ م٠

٧٦ ـ ـــــ : مصر والحضارة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٤١ م٠

٧٧ ـ ـــــ : الرحالة المسلمون فى العصور الوســطى ٠ القاهرة ١٩٤٥ ٠

٧٨ ـ الدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافيــة فى العهــد الفرعونى (المجمع المصرى للثقافــة العلميــة ٠ الكتاب السنوى الثالث عشر) ٠ القاهرة ١٩٤٢ م ٠

٧٩ ـ الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ·
القاهرة ١٩٤٧ ·

٨٠ ـ ــــــ : مصر فى عصر الاخشيديين · القاهرة ١٩٥٠ م·

٨١ ـ الدكتور عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى ·
الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٣٦ م ·

٨٢ ـ الدكتور عبد العزيز الدورى والأستاذ ناجى معروف :
موجز تاريخ الحضارة العربية · بغداد ١٩٥٢ م ·

٨٣ ـ على بك بهجت : حفريات الفسطاط · القاهرة ١٩٢٨ م·

٨٤ ـ الأستاذ محمد كامل حسين : فى الأدب المصرى الاسلامى من
الفتح الاسلامى الى دخول الفاطميين · القاهرة ١٩٣٩ م ·

٨٥ ـ الدكتور محمد كامل مرسى بك : الملكية العقارية فى مصر
وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن ـ ١٩٣٦ م ·

٨٦ ـ الدكتور محمد سامى جنينة : القانون الدولى العام ·
القاهرة ١٩٣٣ م ·

٨٧ ـ يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ·
القاهرة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠ م ·

(ب) المراجع الأفرنجية

٨٨ ـ

Ali Bey Bahgat : Les Manufactures d'Etoffe en Egypte au Moyen Age, (Bulletin de l'Institut Egyptien Quatrième Série — 6 Avril 1903 — Le Caire 1903).

٨٩ ـ

Amérlineau E. : Etude sur le Christianisme en Egypte au Septième siecle. Paris 1887.

Arnold Th. : The Preaching of Islam. London 1935. ـ ٩٠

٩١ ـ

Becker C.H. : The Expansion of the Saracens (The Cambridge Medieval History, vol. 11 Cambridge 1913.

٩٢ ـ

——— : Art. Egypt (The Encyclopaedia of Islam vol. 11. Leyden — London 1927).

٩٣ ـ

——— : Art Cairo (The Encyclopaedia of Islam vol. 1. Leyden — London 1913).

٩٤ ـ

——— : Historische Studien ueber das Londoner Aphroditowerk (Der Islam Band II. 1911).

——— : Islamstudien. Leipzig 1924. ـ ٩٥

٩٦ ـ

Van Berchem, Max, La Proprieté territoriale et l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Genève 1886.

———— : Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte (Journal Asiatique. Dixième série — Tome IX Paris. Janvier Février 1907).

٩٨ -

Broeckelmann, Carl : Gesclichte der Arabischer Litterature, 2 vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902, 2, Suplementband — Leiden 1937 — 1938.

٩٩ -

Butcher Mrs. E L. : The Story of the Church of Egypt. 2 vols. London 1897.

تعريب اسكندر تادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها » فى ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ م .

١٠٠ -

Butler Alfred J. : The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902.

تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك بعنوان « فتح العرب لمصر » القاهرة ١٩٣٣ م .

١٠١ -

———— : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. Oxford 1884.

١٠٢ -

———— : The Treaty of Misr in Tabari. Oxford 1913.

١٠٣ -

———— : Islamic Pottery. London 1929.

١٠٤ـ

Caetani, Leone : Annali dell' Islam. vols. IV, V. Milano 1911, 1912.

١٠٥ـ

Creswell (K. A. C.) : Coptic Influences on Early Muslim Architectue (Extrait — Bulletin de la société d'Archéologie Copte. Tome V. 1939. Le Caire).

١٠٦ـ

De Castries, Henri : L'Islam, Impression et Etudes. Paris, 1896.

تعريب أحمد فتحى زغلول باشا بعنوان « الاسلام · خواطر وسوانح » مطبعة السعادة بالقاهرة ·

١٠٧ـ

De Sacy, Silvestre : Recherches sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte (Bibliothèques des Arabisants Français, t. II (Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire 1923).

١٠٨ـ

——— : Traité des monnaies Musulmanes. Le Caire 1905.

١٠٩ـ

Devonshire, Mme R. L. : L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.

١١٠ـ

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne. 3 tomes. Leyde 1923.

١١١ـ

———— : Supplément aux Dictionnaires Arabes ,2 vols (Leyden 1881).

١١٢ـ

———— : Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. Amsterdam 1845.

١١٣ـ Georgy Sobhy Bey : The Survival of Ancient Egypt. (Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. T. IV. Le Caire 1938).

١١٤ـ

Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. 2 vols. Leipzig 1885-1886.

١١٥ـ

Johnson Allan Chester : An Economic Survey of Ancient Rome vol. II Roman Egypt. Baltimore 1936.

١١٦ـ

Jouguet Pierre : L'Egypte Gréco Romaine (Précis de l'histoire d'Egypte. t. 1).

١١٧ـ

Kammerer Albert : La Mer Rouge. Tome Premier. Le Caire 1929.

١١٨ـ

Lamm Carl Johan : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East. Paris, 1937.

١١٩ـ

Lammens : Un gouverneur Omaiyde d'Egypte ; Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes (Bulletin de l'Institut Egyptien. 5e. Série Tome 11. Le Caire Décembre 1908).

-١٢٠
Lane-Poole Stanley : A History of Egypt in the Middle Ages. London 1925.

-١٢١ Lewis, Bernard : The Arabs in History. London 1950.

نقله الى العربية بعنوان « العرب فى التاريخ » الأستاذان نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد ـ بيروت ١٩٥٤ .

-١٢٢
Macmichael : A History of the Arabs in Sudan. 2 vols. Cambridge 1922.

-١٢٣
Marcel : Egypte, dépuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination Française. Paris 1848.

-١٢٤
Massignon : Annuaire du Mondé Musulman, Paris 1925.

-١٢٥
Mez Adam : Die Renaissance des Islams. Heidelberg 1922.

نقله الى العربية فى جزءين الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » القاهرة ١٩٤٠ م .

-١٢٦
Milne J. Grafton : A History of Egypt Under Roman Rule London 1924.

-١٢٧
Mohammed Ben Cheneb : Classes Des Savants de l'Ifriqiya, Alger 1920.

-١٢٨
Munier Henri : L'Egypte Byzantine (Précis de l hist, d'Egypte. t. II. 1932).

-١٢٩
Le Prince Omar Tousson : La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Arabe. Tome Premier-Le Cairo 1926.

-١٣٠
Pedersen : Art. Masdjid (The Encyclopaedia of Islam vol. III. Leiden. London, 1936).

-١٣١
Quatremère Et. : Mémoires Géographiques et Historiques 2 tomes. Paris 1811.

-١٣٢
——— : Recherches Citiques et Histoniques sur la Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris 1808.

-١٣٣
Sauvaire M. H. : Materiaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmanes (Extrait du Journal Asiatique, 7 eme Série t. xiv. xv, xviii, xix. Paris 1879).

-١٣٤
Wiet Gaston : L'Egypte Musulmane (Précis de l'histoire d'Egypte t. II).

-١٣٥
——— : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV).

١٣٦ـ
———— : Les Communications en Egypte au Moyen Age.

نقلها الى العربية محمد وهبى بعنوان « المواصــلات فى مصر فى العصور الوسطى » ونشرت فى كتاب « فى مصر الاسلامية أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكبــاشى عبد الرحمن زكى .

١٣٧ـ Zaky Mohamed Hassan : Les Tulurides. Paris, 1933.

فهرس

صفحة

صدر من هذه السلسلة

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاه
د. سيدة اسماعيل كاشف

العـدد القـادم

المستشرقون والتاريخ الاسلامى

د. على حسن الخربوطلى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٨٨٦٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٧٢٦ ـ ٩